مكتبة الأسرة 2000

Bibliotheca Alexandrina
0137038



الأعمال الإبداعية

سارق الكحل

قصص قصيرة

يحيى حقي

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

سارق الكحل

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : حاملة المصباح التقنيه : زيت على سيلوتكس
مقاس العمل : ١٠٠ × ٨٠ سم رقم السجل : ٥٢٤٥

تحية حليم (١٩١٩)

إحدى رواد الحركة التعبيرية الحديثه فى الفن منذ النصف الثانى من الخمسينات ، واحتلت فى الستينات مكانا مرموقاً حين أولت جل اهتمامها للتأكيد على عناصر الرسم التى تبلور الروح الشائعة فى أبجديات الشخصية المصرية.

وقد منحتها رحلاتها فى الجنوب ، وفى الواحات ، وفى الريف المصرى الكثير من المفردات التى اشتغلت بها . لقد كان اللون البنى المعتم ، والمحروق ، وتهشيرات السطح ، والخربشات المتعمدة ، وموضوعات النيل ، والقوارب ، والأنتظار مع لمبة الجاز ، سببا فى إصباغ لوحاتها بذلك الطابع الشجى ، العذب ، الحزين الذى طالما طبع المصريين فى ملاحمهم الشعبية .

قطاع الفنون التشكيلية

سارق الكحل

يحيى حقى

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

سارق الكحا
يحيى حقى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

كأن

(١)

أحسست فى غموض وأنا خارج من البيت كأننى وضعت نفسى فى حقيبة قفلتهـا وتركتهـا به ، ليس العرى لاصقا بجسدى بل بروحى ، ماضقت بحيـاتى (هـكذا كان يبـدو لى) ولا مضيت هائمـا على وجهى بارادتى ، بل بالعكس ، لم يكن خروجى عن ملل ولابغير مقاومة منى ، مقاومة مبعثها شىء من برودة سرت فى كيانى ونحن فى عز الصيف ، ماهى ؟ لاشك أنها برودة الخوف . هل يمكن أن يحتل الخوف قلوبنا على غير وعى منا ؟ دائما وجدتنى فجأة مسوقا الى أن أبدأ مبارزة شد الحبل على اسم ، مجرد اسم لم أكن رأيت صـاحبه من قبل ، لاأعرف سحنته أو وزنه وطوله وعرضه ، ولكننى قرأت عنه فى الصحف منذ عدة أسابيع ، فى لحظة كأن القدر اختارها لى عن عمد ، ليتنى ماقرأت هذه الأسطر المكتوبة بالبنط الدقيق فى نهاية عمود بالصحيفة السابقة

من الجريدة · لماذا اصطادت عينى كما يصطاد الثعبان عصفورا من على الشجرة بسحر نظرته المغناطيسية الجاذبة ، المتلقفة ؟ لعل يدى أحست فى تلك اللحظة بطرف الحبل الذى مد لها ، ستأتى مبارزة الشد فيما بعد، علمت من هذه الأسطر القليلة خبره وماهى تهمته وأين سجنه ومتى ستعقد محاكمته ، وتفاصيل أخرى ضئيلة عن حياته لاتكفينى لأن أراه بمخيلتى ، لاترتسم بها الا صورة مهزوزة له ، عمره بالتقريب ، نوع ملابسه بالحدس ، أما نظرته اذا وقعت على نظرتى ، ويده اذا لمست يدى ، وجرس صوته اذا سمعته أذنى فهيهات لى أن أعرف كيف هى ، وكل كيف محتمل وغير محتمل معا . ولا دهشة عند تكذيب اليقين للظن · ولمعة النظرة، ولمسة اليد ، وجرس الصوت ·· هى أولى وسائلى وأصدقها لمعرفة انسان · ونسيت كل شىء عنه ، لا علاقة لى به ، ولما أسفر يوم المحاكمة عن وجهه بعد اندثار فى زحمة الأيام استيقظ من نومه العميق فى باطن ذاكرتى ، ونبهنى الى الموعد مع أنى لم أقرأ الصحف فى ذلك الصباح فأعلم أن اليوم هو يوم المحاكمة · أحسست فى غموض كأن مبارزة شد الحبل قد بدأت · انسان مجهول عندى يجذبنى اليه شيئا فشيئا حتى اذا

التصق جسدى بجسده شفطنى داخله ، أصبحت أنا هو ، ماضيه ماضى ، وبقية عمره ستكون بقية عمرى ، واختلط الاحساس بالبرودة ـ لاشك أنها برودة الخوف ـ شعور بلذة غريبة هى انتصار نزعة قديمة لا أدرى متى بدأت ، أن أنخلع عن نفسى ، أن أضعها فى حقيبة أقفلها وأتركها فى البيت ، أن أذوب فى شخص حى آخر ، ليس شرطا ان يكون التقمص بعد الموت ، جائز جدا أن يتم أثناء الحياة ، هى لذة السفر الى بلاد مجهولة ، الى آفاق مسحورة ، الى عالم جديد ، لذة مضاعفة الحياة مثلين ، بلا انقطاع بينهما ، فلن أكف فى حياتى الجديدة عن القاء نظرة من بعيد الى نفسى التى تركتها ورائى داخل حقيبة قفلتها عليها ومضيت ، يقال ان الروح أيضا تظل أياما تنظر من عالمها العلوى الى الجسد الذى فارقته ، مطروحا على الارض ، انتظر ، لازال هناك تعليل آخر لتلك اللذة ، فأنا موعود بأن أتقمص انسانا كبقية الناس ، له ماض فذ ، لم تجن الغرائز المكتومة على مسرحى كما جنت على مسرحه ، له روعة انطلاق حمم البركان الثائر وألسنة لهيبه ، لم يكشف الشر الدفين عن وجهه فى سجلى كما كشفه فى سجله . شر مهول ، له سحر العبقرية ، ونداءات من ماضى

الخليقة ، جلجلة الرعد صراخها ، وجنــون الغــرائز وعبقرية الشر لها أيضا جمالها · لعين وفاتن معا ، هذا هو ماضيه الذى سيكون ماضى أنا أيضا ، أما مستقبله فمحفوف بالخطر ، قد يقوده الى حبــل المشنقة ، كأنى شبعت الى حد التخمة من الســلم والدعــة فاشتقت الى الخطر أعيد به صدق مذاقى لطعم الحيــاة · ســأجرب كيف أسمع · ياترى نطق القاضى بالحكم باعــدامى ، كيف أعيش بعده وحيدا داخل زنزانة ، أعد الثوانى ، وبعد ذلك آكل وأشرب وأنام · كيف تشتغل أحشاء جسد يرفرف عليه الموت الأكيد ، سأجرب هذا الصراع المهول بين الأمل فى الحياة ، لايتزحزح كالصخرة ، وبين دبيب عزرائيل عن يقين خطوة خطوة نحوى ، سأجرب شعورى بالفرح حين ينفتح البــاب فأرى أن فتحــه لم يكن الا لدفع صحن الى ، وشعور الرعب حين أرى أن انفتاحه ذات مرة هى بداية السير الى حبل المشنقة ، ســأجرب كيف تنطلق من جوفى كله صرخة هى منذ الأزل عذاب الانسانية · ولماذا لايعود الزمن الى الوراء ؟ لماذا ؟ لماذا؟ لماذا ونحن نقدر أن نمــده فنمضى به قــدما الى أمام لانقدر أن نسحب مامضى منه ، ونكر معه الى الوراء ؟ لماذا كل ثانية ، كل نفس يتردد ، كل رعشة جفن ، هى

خبطة باترة من بلطــة لاترحم ، لو هــوت على جبل من الجرانيت لشقته ؟ هل حياتنا اذن ما هى الا فتات اثر فتات ؟ أرأيت اذن كم من تجربة فذة سأعهدها ؟ وأين؟ فى حياتى الوادعة المسالمة تجد روحى مثل هذه الذبذبات الدسمة ، كأن فى قلوبنا جميعا استهواء نحو الحــدود القصوى ، نحو حافة الخطر ، نحو قلقلة الحجر الصغير تحت أقدامنا ، وهى تستند عليه ، ونحن نتسلق قمــة الجبل الشــاهق ، ماأشــهى طعم الموت ونحن فى حضن الدفء أحياء ، ونظل بعد تذوقه أحياء ٠

أخذت أستسلم لشد الحبل بعد مقاومة أعلم أنها مخادعة وفاشلة رغم زعمى لها الصدق والعزم ٠ هذه هى تبرئة التألق لذمته أو حياء الأبى الجــائع اذا دعاه غريب حقير لطعام مبذول ، مقاومة مبعثها شىء من برودة سرت فى كيانى ونحن فى عــز الصيف ٠ لاشك أنهــا برودة الخوف ، فشتان بين نفخ البــوق والتحام الجسد بالجسد فى ميدان الوغى ، وكنت أستطيع أن أقاوم ، وأن أشد الحبل نحوى فينفصل عن هذا الانسان الذى يجذبنى ، وأنفصل أنا أيضا عنه ٠ أن أخرج من بيتى فأتجه يمينا الى مكتبى وأكون قد نسيت كل شىء ، وتكون كل هــذه الأحاسيس ٠ مســبوقة بكلمة «كأن» أوهاما

وهواجس ، أو أحـلاما ذاب فيهـا كابوس ، تتبدد اذا قابلت النـاس وانخرطت في عملي . سويا مع أسوياء، ولكنى وجدتنى وأنا أقاوم اتقاء للشر ، وأنحرف الى اليسار ، وأمشي نحو المحكمة ، وأدخل القاعة المزدحمة ، وأبحث حتى أجد مكانا بجوار القفص ، ثم أنظر اليه من فرجة القضبان فأراه لأول مرة .

(٢) اللقاء الأول فى المحكمة

فى اللحظة التى جلست فيها الى جانبه ، ورأيت من خـلال القضبان لاول مـرة نوع بريق نظـرته . أحسست ـ ولاشك عندى أنه احس مثلى ـ بأننا فى مستقبل الأيام ـ حين يتم اندماجى به . سنذكر هذه اللحظة . ونقول . ونحن نتعجب ، ان لقـاءنا الأول ـ غريبا بغريب ـ كان كأنه لقـاء مألوف متكرر بين أصدقاء قدماء ، ونردد الحديث الشريف عن الأرواح التى تتخالف ، وسـنكون كاذبين على أنفسـنا ونحن لاندرى ، سيكون لا منشأ لهذا الاحساس الا أننا نسحب حاضرنا حينئذ على الماضى ، ونتصور أن حالنا كان دائما هكذا ، فهـل تذكرنا الثمرة ، ونحن نأكلهـا ، باليوم الذى كانت فيه نيئة ، نحسبها نبتت فى عـز

نضوجها ، كأن فرحة الوصــول الى التمام تلغى عن الذاكرة ماسبقها من وعثاء التمهيد وعنائه • الناس لاتنظر الى الماضى بعين الحاضر ، وهــذا سر قولهم ان التاريخ يعيد نفسه •

الحقيقة هى أن لقاءنا الأول كان كأنه فعلا بين أصدقاء قدماء ، كأننا اقتطعنا من المستقبل الذى نراه رأى العين اليوم الذى تم فيه اندماجى به ورددناه الى الوراء فولد لقاؤنا فى مهده • ومــع ذلك كانت ولادة هذا اللقاء الاول ــ ككل ولادة ــ مصحوبة بجهد شاق ، كان لابد لنــا نحن الاثنين من اجتيازه قبل أن نصــل للراحة ، من ناحية الجالس فى القفص توتر شديد بين ، ومن ناحيتى آنا تحفر متآجج مستور •

أما هو فقد كانت له فى قبضة الوحدة المرهقة فى السجن ، وشبح المشنقة يتأرجح أمامه ، آحــلام مزمنة وسط خيالات أخرى معربدة بأن القدر سيرسل له حتما ــ ومن حيث لايحتسب أو يتوقع ــ شخصا مجهولا لديه ، يكون لقاؤه به بمثابة الفرجة فى الظلام ، قد لاينقذه ، ولماذا ينقذه ، المهم أن هذا القادم سيرد اليه صــوابه ، سيكون هذا الشخص المجهول بمقام الوتد الذى يربط به حبال خيمته التى تهدها العواصف الهوج كلما نصبها ،

ينفتح بطنها ولكنها تجهض كل مرة • ستبدو له بفضله حقيقة الأشياء وسط الضباب الكثيف مخيفة ولكنها على الأقل وليدة العقل لا الهذيان ، فقد اختلطت فى ذهنه الأيام والأحداث والذكريات لايدرى كيف ومتى وأين حدث الذى حدث ، انه فى آشد الحيرة ـ الحيرة هى التى تجعل الطبق يسقط من يده ، ويخلع بنطلونه وهو يريد أن يلبس بعده قميصه ، ويظل يمضغ على الفاضى ، بعد أن يزدرد لقمته ، مسحورا بمراقبة حركة فكه الأسفل وصوت خبط أسنانه على أسنان فكه الأعلى ، ولماذا يداوم الأكل ، يستطيع الوقت أن ينتظر ، لأن وقته فى السجن مرتخ أشد الارتخاء ، كأن حبـــاله منســـوجة من رمال الجيزة التى تجعله يسأل نفسه وهو يمد قدمه : هل هى خارج باب الزنزانة أم خارج باب السجن ؟ لم لاتكون هذه تلك ؟ لم لا ؟ كل المسجونين الخائفين من الحكم عليهم بالاعدام يعيشون وهم واثقـــون بأن معجزة ستحدث ، سينشب حريق يلتهم ملف القضية ، ســـتقوم ثورة فى البلد ، سيعثرون على خاتم الملك أو طاقية الاخفاء ، بل يرضون أن تكون المعجزة هى مجىء يوم القيامة ، يبعثر القبور ويهدم الدنيا كلها •

وما رآنى أجلس بجـــانبه كأننى أثب على سطح

الموج الذى يلفه ، وكأنه عارف بمكانى من قبل ، عارف بلقائى به ، وكأننى على موعد معه ومع مكانى ، حتى تملكه توقر شديد . هل هذا هو الشخص الذى همست به أحلامى ؟ هل القدر يصدق أم يعبث بى ؟

وفى لحظة خاطفة ، كأنها ومضة البرق ، ارتفع الأمل الى ذروته ثم هوى الى حضيض من الريبة المفترسة .

من هذا الشخص الذى يقحم نفسه على دنيا ، دنياى أنا وحدى ؟ هل هو دسيسة ؟ هل يريد أن يحذرنى بمعسول كلامه لينتزع منى اعترافى بجرائمى ؟ هل أرسله واحد من أقارب الضحايا أو لعله واحد منهم ؟ هل سيحاول قتلى انتقاما منى ، يطعننى فجأة بخنجر أو يطلق مسدسه فى صدرى ؟ هل هو حامل لسهم خفى يصيبنى به زفيره ؟ هل هو مجنون هارب من مستشفى المجاذيب ؟ هل هو عزرائيل يتخفى فى شكل انسان ؟ أم تراه هو روح والدى تقمص فى جسد انسان خير ، أبى ، يريد أن يخرج من قبره يزورنى ؟ هل البسملة تصده أم تستأمنه ؟

كنت أصوب اليه ــ مع الابتسام ــ نظرة شاخصة

متصلة فتتهرب عيناه منها ، ويشيح بوجهه عني ، كأنه منصرف عني بمراقبة شيء عن يمينه أو عن يساره ، ثم فجأة يغافلني ويدير وجهه نحوى • لحظة خاطفة ليعود فيلويه عني ، رأسه رأس طائر مفزع ، على شجرة ، ينظر الى الخطر ، يتوجس مرة من جنب ومرة من جنب • كأن ارتداده مني يكاد يكون مرأى العين ، كان يجرى الى الوراء وهو جالس ، وكأن القفص الضيق أصبح ساحة قسيمة للريح ، أدركت ، أنا الذى أكاد ألتصق به ، أنه كأنما يراني من منظار معظم مقلوب ، أى من بعيد بعيد ، كأني في آخر الدنيا ،وأنا ضئيل ضئيل ، كأنني سخطت وأصبحت عقلة الاصبع بطل الحواديت •

وكنت أعلم أن ريبته ستزول ، ولم يكن تحفزى الا لبذل جهد روحى شديد من أجل ترويض هذه الريبة وازالتها • لابد أن أدعك صلابتها لتلين ، وأعالج عقدتها لتنفك • بالصبر والأمانة والحيلة والرقى والتعاويذ ، فأخذت أملأ نظرتى بأشد ماأقوى عليه من الود والحنان والتطمين • على أن أجعلها شاخصة متصلة اليه بابتسامة أحيطه بها ، وأذرها عليه ، وأجلله بها كما يفعل الصياد بشبكته ، وأن أقدم له من قلبى يدا بيضاء وهمسا حفيا يقول له : لاتخف ، أنا الذى

ناديته ، لن أقـدم ـ وان كان من حقى ـ على معاتبتك لأنك نزعتنى من سلام عيشى ورتابة مشاغلى . وجررتنى اليك لتلفنى أعاصيرك ،ويكون ماضيك ماضى ومستقبلك مستقبلى • بالمشـقة والجهـد الذى عانتـه روحى فى الترويض والدعك والفك ، أحسست بارهاق ، وكنت أهم بالقيام ، وأهرب ، موقظا نفسى من كابوس مخيف، منقذا لها من الأسباب نحو شفط بالوعة مآلها الى ظلمات سحيقة لا نهاية لها • وتمتمت شفتاى فى نطق العامة بكلمة «الهو» ، وكان للواو المشددة فى أذنى كأنه من نفخ الجن ، ولكننى تماسكت ، أو قل خضعت لقوة أقوى من قوتى •

وشيئا فشيئا تبـدلت ريبته وكف عن الاشـاحة برأسه ، ومغافلتى بالقاء نظرة خاطفة ، ومنحنى وجهه ، وان جعله مخيفا نحو صـدره ، رأسه تعتمد على كفيه ، وذراعاه على ركبتيه فى جلسة استسلام وترقب مطمئن ، وان خيل لى أنه يشكو من صداع ذهنـه • حينئذ لحظت ملامحه لأول مرة وعـرفت شكله وبدأ بيننا الحـديث بصمت خافت ، كأنه هو الآخر تحسيس يد أعمى على شيء مجهول •

(٣) الاندماج والكلام ترجمة

المهد الذى ولدت فيه حى زينهم ـ قال لى ـ وألفته طفولتى • انه هــو الأصل فى العــالم الذى خلقه الله ، تقبلته كما هو بلا حجــة أو تعليل ، منــه أو منى ، كل ماعداه شذوذ ، أو خلل ، أو لغز ، أو اهدار للمنطق ، فكنت لاأجد الأمن الا فيه ، فاذا تجاوزته أحسست بشيء من الدهشة أو الخوف ، وعدت سريعا كأننى أهــرب الى مرفأ من بحر متلاطم لايحاط به ، تزغلل شعشعة أضوائه عينى ، وترج ضجته وهديره أعصابى •

فلو سألتنى : من هم الناس لقلت لك هم ناس حينا ، أما غيرهم فمخلوقات على سبيل التجربة لم تجد وضعها الأخير بعد ، فهى تعبث بحياتها كما يعبث الطفل بالطين الخام ، وهو يريد أن يشكل منه شيئا لايعرفه بعد ، فاذا اســتقرت أصبحت ، ولابد ، مثلنا ، وعاشت عيشتنا ، وارتدت عن شى الى هدى • وماهو سكن الانسان ؟ لقلت لك انه فى لفلفة دروب ضيقة حتى تنتهى الى آخر بيت فى حارة مسدودة ، مستندا الى التــل ، فتجد على يمين الباب مندرة أرضها تراب ، هى التى نشأت فيها منــذ مولدى الى آن خرجت منها الى الســجن وأنا فتى يافع ، وما النهار ؟ لقلت لك انــه العتمة ، والذباب ، وأكوام

القمامة على الصفين . وما الليل ؟ هو حبسة مع الظلام والبعوض والبراغيث . وما النور ؟ هو لمبة صفيح سهارى بلا زجاجة ، ذروة تشهق بذيل طويل من الدخان المهيب ، وما الرائحة ؟ هى نفث فروة خروف ، أنفاس صوفها الملبد من فوق ، وزخمة دباغة جلدها – من تحت عمرها – هى ورائحتها – أطول من عمر أهلها ، لم يكن لى فراش سواها . وما الأكل ؟ الفول المدمس والنابت والطعمية والباذنجان المقلى وسلطة القوطة والبصل وسدد من بلاص عسل أسود ، وما النعيم ؟ لقلت لك انه كوب من الشاى الأسود والعين لاتزال مغمضة بعد النوم ، أو قرش تعريفة يعطيه لى أبى بين الحين والحين . وكل شيء عدا هذا كله من أناس ومسكن ، ومن نهار وليل ، من نور ورائحة وطعام ونعيم حديث خرافة ياأم عمرو .

لا سؤال لى : لم كان هذا هكذا ؟ ولم أسمع أحدا من سكان زينهم يتلفظ به ، ولكن عبر احساس مبهم غامض خيل الى أن هذا السؤال يخالطنا ، ويمشى بيننا مشية التائه الدائخ ، وان ظل مختفيا كالماء من تحت تبن ، يكشف عن وجه ، وينطق لا بكلامنا ، بل بكلام الوحش المزمجر – فى لحظات عابرة يعود بعدها زينهم الى الهدوء والاستسلام . من أجل هذا الاستسلام نستحق

أن نوصف بالتخلف ، بالغباء ، بالجهل ، بالتواكل ، طور الله في برسيمه ، واستخفنا ـ يالفرحتنا ـ أن نكون من متاحف العاصمة التى ينصح أيضا للسائح الغريب بزيارتها ضمن جولته ، وحبذا لو أخذ لنا صورة فوتوغرافية ، الأصل فى العالم الذى خلقه الله أصبح فى نظر الممسوخ خارج نطاقه متعة تستحق الفرجة كالأعاجيب ، كالعجل المولود بخمس قوائم أو الرأس المقطوعة التى تتكلم من فوق طبق ، لم يبق الا وضعنا تحت مجهر .

هذه اللحظات العابرة التي أحس فيها بزمجرة هذا السؤال (لم كان هذا هكذا) تأتى حين يسيل دم نافوخ رجل فتحه رجل آخر بسبب تافه ، ينطق الوجهان حينئذ بذروة القسوة والشر ، بصرخة السؤال المكتوم ، وحين ينشب من أجل دلق كوز من الماء عراك عنيف بين جارتين فاذا بالصديقتين الحبيبتين منذ هنيهة من ألد الأعداء ، لو طالت الواحدة لذبحت الأخرى بسكين مبتل بهذا الماء من تحت التبن .

ما ألذ وقع ألفاظ السباب الفاحش حينئذ على أذني ، كانت هي أول كتاب علمنى أسماء الأعضاء التناسلية للذكر والأنثى ، بل مترادفاتها ومواقعها

البليغة ، وكذلك عملها ووظائفها وعاهاتها ـ وهنـا أيضا مترادفات كثيرة لحركات الاصبع الوسطى والذراع لها دور في التصوير والشرح • وتحديد المقاييس هذا رسم بياني لعمارة الجنس • ياخبر أبيض ، انني أيضا سطر في هـذا الكتـاب ، ولعلها حـذفت من صفحتها

حواشي كثيرة ، ضنا بها أن يعلمها أولادها ، من أجل هذا أنفت وكرهت بل قل خفت ـ رغم اعجابي بالرسم البَياني ـ أن أسكن العمارة ، وبدت لى أيامي القادمة محفوفة بتجارب عصيبة أحسست أنني لم أستعد لهـا ولا أدرى كيف يكون حـالى معها ، انغرزت في قلبى بذرةالشك في نفسى • لم أكن أعلم أنها ستورق هذه الزهـور التى يقطر منهـا الدم • ارتبط الجنس في وجداني وذهني بالقسـوة والشر والعنف ، وأيضـا بمنظر المـرأة وهي أقبح مثـال للشراسة والفظـاظة ودمامة الذوق • الوجه مشوه من شدة تقلص ملامحه على جنون • لغـة العيون جاحظة من فـرط التوتر ، الأنياب بارزة كالخناجر • اللثـة منكشفة كبطن دمل مشقوقة مشنفرة • الصوت غجرى • الكلام بذىء • التفنن الداعى في التقصع ، في التلقيح ، واختيـار الموضع الذى يصيب فيه نخز الابرة مقتل الكرامة •

لا حد لقدرتها على الاعتداء ، على الغش ، على الالتهام ·
أظـافرها خلقت لها لتنشبها فى لحم جـاء يلتمس منها الرقة والحنان ، حتى يدمى ، هى أخطبوط لم يبق من خطاطيفه الألف الا أربعة ، هى ذراعاها ، وساقاها ، وبدونه فهى أقوى منـه على أسر الفريسـة وهصرها وامتصاصها بعـد خنقهـا ، ارتبط الجنس فى ذهنى ووجدانى بحركة الخنق بالضغط على العنق ، ما أشد بجاحتها ، أى ظن لها بنفسها هـذا الفـاجرة الدعية المتعافية ، وهى لاتسـتحمل ضربة من قبضة يدك
ماأحمق غفلتها · أليس لديها مرآة لترى صورتها : ثدياها المتهدلتين من كثرة الرضاع ، وبطنها المرخى كالقربة الفارغة من كثرة الحمل والولادة والاجهاض؟ ان جسدها مخلوق للنشوة ، أفلا تشم روائحها ، أفلا تخجل من زيفها المتكرر ؟

وهمس صوت فى قلبى ، أتركها ، حد الله بينك وبينها ، اذا اقتربت منك ابتعد ، رد السلام من بعيد لبعيـد ولا لزوم للكلام ، فاذا اقتنصتك فتخلص من قبضـتها كالقرموط الميت المزفلط · ادع العجـز ، وربما لن تكون فى حاجة الى الادعاء رغم كل حيلها ·

فاذا رأيت اعجابها فى الرجـل بخشونته فاصنع

نفسك أنت على الرقة والدماثة ، أو بقـوته فاجعـل جسدك لينا كالغصن الطرى · أو باستعلائه ، وثباته ، فابـد أنت للنـاس متواضـعا مسارعا الى الكسوف والخجل ، وحمر وجهك كالورد · واسـع لأن يصفك النـاس ــ وأولهم أمـك ــ بأنك ولد كالبنت ، بأنك بنوته ، لكى تخفى كراهيتك للمرأة ·

أترك هذا الجنس الآخر ، والتمس صحبة قرناء جنسك ، أنت من الصبيان ستجد عندهم راحة قليلة ، فبعض الجنس أولى ببعض ·

لم أكن أعلم أننى ، دور صبية الحارة أنفرد بهذا التخبط وحدى ، وأننى بدأت أنسج حبل المشنقة الذى سيلف حول عنقى · لاشك أنطينتى كانت غير طينتهم · ولكن ما السبب ؟ ان لم أكن أستحق منكم الرحمـة فأناشدكم على الأقل أن لاتقولوا بأن هـذا السبب من اكتسـابى عن ارادتى ، من صنعى ، واتركوا لى وأنا جالس فى عذاب هذا القفص ، أنتظر صـدور الحكم شيئا من الراحة ، لبعض من الأمل بأن يكون السبب قد جاءنى بالوراثة ، أو راجعا الى خلل عضوى ولدت به ، ولست مسئولا عنه ، فى احـدى الغـدد مثلا ،

سيزداد أمرى وضوحا حين تروى أنت عنى حكايتى مع أبى وأخى الأكبر ٠

كانت نظرتى لاتزال مصوبة باتصال الى الفتى الوديع الدمث الرقيق الجالس وراء القضبان ٠ أطلقت عليه الصحف لقب السفاح ٠ كنت أترجم عنه فى سرى كلامــه الذى لم ينطق به ، لأننى كنت اندمجت به ٠ وعشت عمره كله خطوة خطوة ، حتى لأتوهم أن على ظهرى أنا أيضا آثار السياط التى انهالت على ظهره ٠ وهنا دق رئيس المحكمة بالقلم على منصته وقال : هات الشاب الأول ٠

ودخــل والد أول صــبى مات مقتولا مخنــوقا مهتوكا ٠

(٤) المدخل الى اكتشاف التل

أعيش الآن حياته ، ماضيه ومقــامه فى زنزانة بســجن باب الخلق ، ومستقبلى تتابع صــفحات بيض أقحمت على أجنــدتى ، ســقط منها طبع اسـم اليــوم وتاريخه ٠ ان أول صفحة مرقومة سأجدها ، ولم أعثر عليها بعد ، رغــم تقليبى لبقية الأجنــدة بلهفة وملل معا ، هى صفحة اليوم الذى سأسمع فيه الحكم بالاعدام،

انه الغيب ملقى فى ظلام قاع بحـر عميق . والسلسلة تربط سفينتى غائصة مختفية توهمنى أن لا حد لطولها، فحياتى حرة طليقة الحركة كحياة بقية السفن التى تحرث هـذا البحر ، اذا أحسست بقلقلة قلت انهـا من عبث الأمواج ، تتأرجح على يد ثابتة ، أرفض أن أدرك أنها من فعل هذا الغيب الذى يترصدنى ـ دون أن أراه ـ من بعيد لبعيد ، اذ هو الذى يشـدنى اليه شـيئا فشيئا ، سأقترب منـه قليلا قليلا حتى يكون اللقاء ، حتى تتم الصدفة .

وأصبحت أعانى من شيئين جديدين على حياتى . أستيقظ من نوم ينحط فوقى كالجبـل ، يرهقنى وأنا الذى طلبته فهـو وسيلتى الوحيـدة للهروب الى باطن الأرض . أفتح عينى فأجدنى تحولت الى لوح من الثلج ، روحى تحجرت من شدة البرد ، وجسدى ملفوف على محور من الصقيع ، تخرج منه أسلاك جامدة هى عروقى وشرايينى ، وأعصابى لهذا الصقيع هبو كهبو النار ، فأنا أرتعش من البرد ومن الحمى معا ، حمى باردة أو بـرد محمـوم ، اننى حينئذ ألتحف بأسفلت الزنزانة ألتمس من لسعة برده بعض الدفء . ومن ندى أنفاسه بعض الترطيب ، وأنا طـول الوقت فى حضن ضجيج

لا أعرف اسمه · أيكون هو الخوف ؟ أيكون هو الموت ؟ كأن قمته هى التى أحالتنى الى لوح من الثلج ·

وثانى الشيئين الجديدين على حياتى هى الأحلام ، أكثرها لاأذكر منه شيئا اذا استيقظت لشدة هولها ، لا لأننى أكون قد رأيت صورا بشعة أو تعرضت لعذاب شديد أو لرعب كابوس ، بل لأنها خارجة عن نطاق العقل ، كأنما قام عفريت مجنون هائج بتأليفها ، واخراجها ، وتمثيل أدوار جميع أشخاصها ، بل انه يتشكل فيتخذ صورة الاكسسوار المتناثر على المسرح ، حتى الستارة هى قطعة من جلده · ولغة هذا المجنون هى الصمت ، وان كان محبا للثرثرة فهو يتكلم ولسانه مشلول ، وينطبع كلامه على كيانى كله ، لا على أذنى وحدها ، كأنى ورقة نشاف تمتص فتجمد عليها تخاريفه، وقد زادت شلفطة ، هنا احساس أنه استنبط أن جسدى مبرقش بالبقع ·

وأقل هذه الأحلام عفريت مجنون ، أيضا ، هو الذى قام بتأليفها ، ولكنه مجنون هادىء له نزعة فنية ، لذلك فانى أذكرها فى الصباح ، سأروى لك آخر مارأيت من هذه الأحلام ، لاأدرى أفى الليلة الماضية أم فى ليلة سبقتها · وجدتنى عاريا فى بحيرة أبصر ساحتها لوزية

الشكل ، لونها أدنى أطياف اللون الأزرق ، شفاف كصفحة السماء الصافية ، وماؤها غليظ ثقيل كالزئبق، فأنا غائص ولكنى لا أغرق ، وسطح الماء كأنه قشرة سمكة رقيقة وذات قوام معا ، وكنت أحس طول الوقت أن هذه البحيرة ماهى الا عين مخلوق مارد هبط على الأرض من عالم آخر ، لا أهداب لها ولا عين له سواها ، ورغم مصارعتى لثقل الزئبق المطبق على ، أغطس وأقب فلا أنا غارق ولا أنا ناج ، ولأننى كنت أشعر براحة واطمئنان فقد خيل لى أن هذه العين تتحملنى برفق ، تريد أن تقول لى كلمة حلوة ملؤها عطف وحنان ، واستيقظت ، لا أحس بضيق ، بل بنشوة غريبة لما رأيت من جمال أو من أطياف . كان جسدى أزرق ، وشفافية وبريق سطح البحيرة ، كأنه عدسة بللورية .

كل هذا وجسدى يأكل ويشرب ويتبرز ، يعرق ويجف ، يتسخ وينظف تنمو أظافره وتقصف ، ويطول شعره ويقصر ، كأن لا علاقة بينى وبينه ، وكان لهذا الانفصام التام بيننا دهشة وعذاب ووجل . فى بعض الأحيان أجز على أسنانى لأعيد التحامى به ولو للحظة خاطفة . وخيل الى أن جسدى أصبحت له ارادة مستقلة

عن ارادتي . فيدى تصــدر منها حــركات ليست من فعلى . تمتد فجأة فتصدم كوب المــاء البعيد عنهــا ، وتقلبه ، وتدلقه على الطبق الذى آكل منه ، وقدمي يلتــوى ولا مطب تحتــه ، وجفني تتــكرر له نــوبات الانتفاض كأنه جــرس يدق ، وحنجــرتي تبح بغتة بلا عجلة ، وأظل أبذل جهدى في تسليكها . وأتنحنح من أجل أن أملك صــوتي فيلفظ أنفى النحنحة رغما مني ، ويتسلى بها زمنا لايبالى ان أصبح أخنف . كان جسدى يعاني هو الآخر ماأعانيه أنا ــ بسبب الانفصال التام بيننا ــ من دهشة وعذاب ووجــل ، كأنمــا حين انفصلنا أخذ كل منــا يرقب الآخــر بعين الشر حتى لتحسبه لا شغل له ولا مشغلة الا هذه المراقبة .

لابد لي ــ لأجل أن أتنفس براحة ولو قليلا ــ أن أهرب بفكرى من حــاضر الزنزانة وهواجسها ، ولو مؤقتا . لأعيش ماضى هذا الفتى ، وقد شاء قدر خفى أن أكون أنا هو ، وهأنذا أغمض عينى لأستعيد حياتى وأنا صبى وأعيشها يوما بيوم .

البداية خط باهت مستقيم . هأنذا صبى يمر عند الناس من أدق فرازة تحجز كل بضاعة بهــا أقل أو أخفى عطب ، طبعا بمقاييس حى زينهم . فشقوتى

لاتزيد ولا تنقص عن شقاوة بقية صبيان الحارة . كلامي وفهمي كلامهم وفهمهم ، وعدد الذباب الساقط على وجوهنا وعيوننا قابل للقسمة علينا بالتساوى ، ليس في خلقتي شذوذ بسيغ أن تلفظني العين من وسطه . أحب لعبة الضباط والحرامية ، وكنت دائما فى جانب الحرامية ، لاأعرف أنني أختارهم لا لأنهم الأذكى والأبرع والأمكر ، بل لأنهم يكدحون في طلب الرزق ، ويحتالون عليه ، بخلاف الضباط لقمتهم سهلة . وكنت اريد أن أثبت لنفسى أننى سأكون بفضل هذه الخبرة قادرا حين اكبر على كسب العيش بشرف ورجولة ، وكنت أحب لعبة الاستغماية - بفضلها عرفت التل الذى يعيش حى زينهم فى حضنه وكان لى فيه يوم ليس كبقية الأيام ، فأنا حين أنظر اليه من الزنزانة أدرك أنه لعب دورا خطيرا وحاسما فى حياتى . كنت صعدت على التل وأنا أجرى . وأقفز فوق الحفر وأتعرج مع التواءات جوانبه ، حتى وجدت لى فجوة أشبه شىء بمغارة فدخلتها ، واختبأت بها وأنا ساكن الحركة ، وان بقيت ألهث ، هيهات أن يجدنى فيها الصبى المعصوب العينين اذا نادى «خلاص» .فجاءه رده من بعيد «خلاص» .

كنت لا أزال أسمع وقع جرى الصبيان على التل،

وتدحرج الأحجار من تحت أقدامهم ، ومكثت برهة ووجهى يكسوه التهلل ولذة الترقب ، فاذا بوقع الأقدام يتضاءل ، ثم يختفى ، ويشملنى السكوت والصمت ، ومر زمن طويل تأكدت بعده أن اللعبة قد انتهت ، وأنهم نسونى ، فخرجت من المغارة ، والتقيت بالتل لأول مرة وجها لوجه ، لا ثالث بيننا ، شعرت أولا بالخوف بسبب وحدتى وانقطاعى ، ولكن الخوف زال حين بدأت أنظر الى التل كأننى اكتشف شيئا جديدا ، فاذا به يسحرنى بانعزاله وغموضه ، وقدرته على سترك ، وتخبئتك عن أعين الناس . جبت أغلب جوانبه وكهوفه وعرفت نوع طوبه وأحجاره ،وامتحنت أرضه ، فوجدتها خليطا من تراب داكن زخم الرائحة ، وفتات طوب ونباتات عفنة لعلها بقية من قمامة . العجيب أن أنفى أحب هذه الرائحة ، وأحسست أن فى بدنى عرقا قد نبض لها ، وأنه لن ينبض بعد ذلك الا بفضلها أيضا ، هذه هى رائحة مخاض الأرض ، وهذه الأرض فى هذا التل رخوة تلين لك ، تستطيع بلا فأس أن تحفر بها قبرا ، بأظافرك وحدها ـ ولم لا ؟ تحفر قبرا وتملأه دون أن يحس بك أحد ، حتى لو انطلقت على حافته صرخة فلن يسمعها أحد . أما المشرجة فهيهات أن

تتجاوز أذنك • لم تعد الوحدة فى التل تخيفنى ، بل وجدت فيها راحة ونعيما ، زادت قيمتها عندى حين غابت الشمس ، والتفت التل بظلال بدت لى رحيمة حانية ، علمت منذ ذلك الغروب أن هذا التل سيكون مملكتى ، ومحراب لذتى •

(٥) آخر العنقود

كان صاحب العنب قد وجد فى قفصه عنقودا تهرأت حباته الا اثنتين ، واحدة فى رأسه ، وواحدة فى طرفه، حين مرت به أمى تسأله نصيبها • لف العنقود فى مشيمة لئلا تراه ، وفتح بطنها ، ووضع القرطاس فيه ، وقال لها : هذه قسمتك ، لم أحرمك كما فعلت بكثيرات غيرك ، فأنت ولية مسكينة ــ لن تكونى صحراء جرداء ، بلا نبت أو ظل آلة معطلة بلا نتاج ، لن تصيبك لعنة العقم وجنونه ، لن تعوى سرا بالليل كالذئبة الجائعة ، لن تدورى بالنهار مخبولة على الأولياء كالشحاذة الذليلة ، ولكنه لم يقل لها : وستبكين عشرين مرة بعدد الحبات المعطوبة •

نزلت الحبة الأولى وأمى فى سن الرابعة عشرة ، هذا هو بكرها ، أخى الأكبر ، ثم حملت بعده قل عشرين

مرة تجهض أو تسلم وليدها الى الغير وهو مايزال فى اللفة · بكت على كل ولد كأنها لم ترزق الا به حتى السقط له اسم ، ولما تجاوزت الأربعين ، وتقدد جلدها، وغطت التجاعيد وجهها ، نزلت الحبة الثانية الباقية وجئت أنا للدنيا ، وكنت وأنا صبى ، حين تقول لى أمى اننى آخر العنقود ، وبينى وبين أخى الأكبر عشرون حملا مضاعا ، أتصور أننى وأنا فى بطن أمى قد أكلت أنا الحبات المتهرئة ، لقى كل اخوتى مصرعهم على يدى، كأننى خلقت لتكون لذتى الوحيدة أكل الجنين ·

ولأننى آخر العنقود دللتنى أمى ، تجلسنى على ركبتها وترقصنى ، تأخذنى بين ذراعيها وتحضننى ولكنى أنفر منها · الترقيص يصيبنى بالدوار والحضن بالاختناق · أف ، أف ، كنت أريد الأم التى تدللنى شابة حلوة ، لحمها طرى ، وكرهت أمى ، كيف أقبل فما تساقطت أسنانه ؟ واحتقرتها فى قرارة نفسى : ألا تخجل هذه العجوز من أن تضجع لرجل ، كرهت من أجلها أيضا كل النساء ·· لم أنتبه وأمى تدللنى أن عينا ترقبنى بغيظ مكتوم ، هى عين أخى الأكبر ، انطبعت فى ذهنى له صورة يبدو فيها أضخم وأكبر من حقيقته، لازمنى هذا الوهم حتى الآن ، هاهو جالس فى مقعد فى

آخر قاعة المحكمة ضئيل ، ولكن يأتيني منه اشعاع قوى كأنه هبو النار، لايحفل أن يتقدم الى القفص ، ويكلمنى، ويسأل عن أحوالى يأتى تأدية لواجب مفروض عليه ، بل لعله فرحان لأننى وقعت ، وخلت له الدنيا . نظرتى لاتثبت على وجهه حتى تعدل عنه ، لايعرف أحد أن هذه النعجة الرخوة فى يد امرأته الجالسة بجـواره تأتى للتسلية والفرجة بنت الكلب ، كان من أشد الوحوش ضرارة فى معاملتى ، النعجة تستأسد ، وماذنبى اذا كان أبى لم يعد مرة الى داره وهو سكران الا تحرش به وضربه ضربا موجعا ، وضرب أمى أيضا ، وكنت أختبىء فى ركن ، وأسلم من يده ، واذا عاد وهو صاح طلبنى ، وأجلسنى بجانبه ، وغافل أمى ، ودس فى يدى قرشا ، لاأدرى هل أحبـه أم أكرهه ، كما أكره أمى ، ولكنى كنت رغم هذا التمزق أحس باطمئنان ، لأننى فى حماه ، من هـذه العين التى تراقبنى بغيظ مكتوم ، عين أخى . أكذب اذا قلت اننى أذكر أبى بوضوح ، هو فى ذهنى وجـه مقدد مضنى فيه ثلاثة صفوف عرضية من الثقوب ، كرسم الجمجمة على كشك الكهرباء ، وشعر كث قذر متهدل على العينين ، ملتف حول الفكين والذقن وفوق الشفة ، وجه أشـبه شىء

بالمقشة ، ورائحة بخر فم تزداد حين يكون مخمورا ، وسعال متصل بالليل ، ومن الجسد كله يخرج نزح من التعب والارهاق والعناء والشقاء ، من أجله وبسببه نفرت من أن أكون أبا .. حد الله .. ستكتفي نفسي بنفسي وعند الاضطرار سأسطو ثم أهرب ، وسأحطم من فوري كل شيء سطوت عليه ، لئلا يبقى حبلا يربطني بواجب . سأعيش حرا ، وليبق الأسر والعبودية لكل الناس .

صبحية موت ابى ضربني أخي أول علقة ، تحرش بي من الباب للطاق ، تضخم شبحه حتى ملأ المندرة ، الغيظ المكتوم في عينيه نطق وطفح ، نظرته اتقدت كالشرر ، وبانت لذراعه عضلات لم تكن له ، اندلقت الدمامة والقسوة على وجهه . هل وجوه الرجال جميعا تخفي هذه القسوة وهذه الدمامة ؟ اذن لم يبق الا وجه الطفل ، هو وحده الذي يصدق في وحيه بالأمان . بالرقة ، بالوداعة ، بالوسامة .

في تلك الليلة وأنا راقد فوق الفروة في ركن المندرة أحسست بأنني وحيد ، منقطع عن العالم كله ، ضائع لا حمى لي ، مقهور ، عاجز ، أعلم أن روحي لن تنال شيئا من شهواتها الا في الأحلام ، أما في اليقظة

فبالحيلة ، بالخطف ثم الهرب · لابـد لى أن أقنع بمتعة لدقيقة ان استعصت متعة لساعة ، ولا مفر لى من أن أتستر ، أن أعيش بوجهين : وجه أمنحه للناس ، وجه ولد وديع طيب مسالم ·· ووجه متقلص من عنـاء التدبر والخوف من الزلل وهتك الستر ·

انبعثت من عينى دموع سخينة · المنـدرة كلها تضـغط على صـدرى ، كأنما جسدت شـبح أخى ، وأحسست بيـد عجفـاء تريد أن تربت على رأسى ، فأشحتها باشمئزاز ، وأدرت وجهى للجدار ، وأخذت أتنفس من خلاله جو التل القاتم وراءه ، تل زينهم الذى يستند اليه بيتنا ، هنا مملكتى التى أنعم فيها بالحرية بالانطلاق ، هنا ستنال روحى كل شـهواتها ، وماهى الا شهوات محددة ، قد لاتتعدى الواحدة ، هى منحق كل انسان ، وأخذت أضرب بخيالى فى جوانب التل ، وقد أصبحت أعرف كل شبر فيه ، وأنبش بأصابعى فى أرضه الرخوة ، وأتشمم رائحة ترابه التى ينتفض لها عرق من جسدى ، حتى سرقنى النوم شيئا فشيئا وغبت عن الوجود · وفى الصباح بدأت لى عادة جديدة ، أن أقضم أظافرى وأنا سارح اذا كنت وحدى ·

وتوالت علقاتأخى ، وزادت قسوته · جرنى مرة

وأنا عريان كما ولدتني أمي الى قسم البوليس ، وطلب من الضابط تأديبي لأنني ولد كسلان خيبان ، قليل الأدب ، أقضى النهار الى العشاء في سرمحة بالتل ، قد أغفر لأخي قسوته الا أن يفضحني أيضا أمام الناس · قال له الضابط : كل الحارة تحبه ، وتقول انه ولد وديع شديد الحياة ، أجابه أخي : لأنك لاتعرفه · ياما تحت السواهي دواهي ·

بعد شهر واحد من موت أبي كان أخي قد أخرجني من المدرسة الابتدائية ، وبيني وبين الشهادة سنة واحدة ، وأسلمني الى ترزى أتعلم مهنته ، كان يستولى على أجرى ، ولايعطيني مصروف يدى ، واذا علم أن أمي دفعت لى قرشا من وراء ظهره ضربها وضربني ، مع أنني كنت قد بلغت ، واخشوشن صوتي ، وطر شاربي ·

ها أنذا أصعد التل بعد الغروب ، يدى ممسكة بيد صبي صغير من أبناء جيرة الجيرة سمح الوجه ، وديع ، يده ناعمة رقيقة · أبتسم له وروحي تئن من الضياع ، والوحدة ، والحرمان ، من معاناة الضغط والقسوة ، من انسداد كل خرم أستطيع أن أنطلق منه · لابد لهذا البركان المكتوم أن يتفجر · وكان

لأنفجاره دوى الأجـراس فى أذنى . غبت معهـا عن وعى . وبقى فى الغيبوبة مع ذلك احساس بأن روحى قد مستها شحنة كهربائية عنيفة . تسحقها وتنفضها فى أن واحد ، فيها موتها ونشورها معا ، ونزلت من التل وحدى أقصم أظافرى ، وأذوق طعم التراب المندس تحتها .

ولما عرفت كيف أخطو أول خطوة سرت فى الدرب بعد ذلك بسهولة واطمئنان ، كان دق الأجراس أصبح يومىء الى من بعيد ، ويدعونى الى لقائه دعوة مشتاق الى مشتاق .

رفعت الجلسة للاستراحة . مد العسكرى حارس القفص بسيجارة اليه ، هو وكل شىء من فى السجن وراء القضبان أو خارجها ، لهم اعـزاز وحب لهـذا الفتى . لوداعته ، ورقته ، ولكننى قطعت الحبل الخفى الذى كان يشدنى اليه لألتحم به ، وأعيش حياته ، لم أذهب للزنزانة . بل عدت الى بيتى . سألنى أهلى أين كنت ، أجبتهم : كأننى كنت فى حلم دهمنى فيه كابوس لعـين فظيع ، رأيتنى كأننى أخطـو فى تـل زينهم وبارشادى استخرجت اثنتى عشرة جثة مهتوكة لصبية صغار ، ماتوا خنقا ، وبقيت ضحايا أخرى لم يعرف

أحد عددها الا أنا ، رأيتني وكأنني ·· قطعوا كلامى قائلين : أتظل طول عمــرك وليس لك قــول الا كأن مسبوقا بكلمة كأن ·· تعبنا من كأن هذه ·· ألا شيء عندك هو الحق والصدق والخبر اليقين ·

سارق الكحل

الذى يلف يدى منذ الشتاء ثقل على ، وأصبحت لا أطيقه ، وقد تقدم الصيف واشتد الحر · يقول لى الطبيب انها بثور تنفرد دون بنات جنسها الغبيات بالدهاء والحيلة ، هن يتساقطن كالذباب الدايخ على الأقوياء فتفتك بها مناعة الأجساد قبل أن يصرعها دواء ، أما الخبيثة الماكرة فتحوم كالعقارب على أجساد وأرواح ينخر فيها من قبل كالسوس أعداء عتاة ، وتصبر حتى اذا وجدت لها من الضعف منفذا تلصصت ودخلت ، وجلست وتربعت ، ونصبت سرادقها بسماجة ، ورفعت أعلامها بوقاحة ، ومضت تبيض وتكثر على هواها ، فليس أمامها الا خصم متهالك ، كل سلاح يوجه اليها ينكسر أولا فى يده ·

بدأت أكره نفسى وأكره الناس ، أو بالأصح زاد كرهى لنفسى وللناس ، وهم يمدون لى يدا صافية مبرأة مجلوة ، لم أنتبه لجمال اليد الا بعد أن ابتليت بهذه

البثور ، ثم أتسلى بالقول لنفسى ان المصـابة هى لحسن الحظ يدى اليسرى ، فبقيت لدى يدى اليمنى تقوم وقت الشدة مقام اليدين ، فلم يتأثر نمط حياتى كثيرا ٠ اذا صرفت الخادم كالعادة قبل المساء استطعت أن أعد بنفسى لنفسى اللبن والشـاى ، وجلست كمـألوف طبعى لا على المائدة بل أمام منضدة الراديو ، على حافتها كتاب مفتوح وأغمس بيدى اليمنى قطعة من الخبز المجفف وأقضمها وأمضغها وأبلعها على مهل ، فأنا آكل وأسمع وأقرأ فى وقت واحد ، وتكون النتيجة أننى لاأفهم ماأقرأ ولا أطرب لما أسمع ولا أتلذذ بما آكل ، مع أننى آحب هذا الكتاب ، وأسير ساعة لأشترى هذا الخبز المجفف من فرن في حارة لايعرفه كثيرون ، ولكنى اكتشفته صدفة وأبقيت خبره لنفسى وحدها لكن ٠٠ ماذا يهم ؟!

ان الوقت يمر بسلام كأنه هدنة ويسلمنى الاعياء الى النوم ، خلوة لاأدرى أأنا ضائق بخرسها أم سـعيد بأمنها ٠

وفجأة تغير نمط حياتى ، اننى أسكن الطابق الأرضى فى منزل قديم ، أما الطـابق الثانى فهو أصـغر ، بناه صاحب البيت «وطلاه» ، جدرانه نصف طوبة ، وسقفه ورقة سيجارة ، وحجراته الثلاث ضيقة كالحق ، وأجره

مع ذلك مرتفع فظل زمنا طويلا شاغرا ، وتمنيت أن لايجد مستأجرا فانني أحسب لمناكفة الجيران ألف حساب وفي يوم ·· أحسست بضجة على السلم ، وقع أقدام قوية تصعده خطفا على طرف حذاء يزيق ، وتهبطه دقا بالكعب: صاحب هذه الأقدام ولاشك رجل سبهللى لايضبط حركته، وسمعت كلامه مع رفيقه فاذا بصوته أجش ، يغمغم باللفظ ولايفصح به ، هذا رجل فكره المعفرت أقل صبرا من لسانه ·

وما علمت رغم انصاتي سبب ضحكاته القصيرة المدوية كالرعد : هذا رجل هليهلى ·· يضحك عمال على بطال ، وغاب عنى من قبل أن أتصيد وجهه من خلال النافذة ·

ثم حمل للبيت بعد أيام أثاثا جديدا لنج ، كأنه منديل صرت فيه كل الألوان الخفافى من بمبة وأصفر وفستقى ولبنى ، فأدركت أن الشقة ستستقبل عروسين جديدين تكون أول اقامتهما فيها هى ليلة الدخلة · لا أدرى لماذا ابتسمت لهذا الخاطر ، هل الفرح يعدى؟ وتحرقت نفسى شوقا لمعرفة جارى ، وشوقا أشد لرؤية عروسه ·

وبعد أيام أيقظنى على وجه الفجر وقع أقدام تصعد

السلم ، متمهلة هـذه المرة ، وسمعت همسا بين رجـل وامرأة وخشخشة ثوب ينبىء أنه فضفاض ومن الحرير الثقيل ، لاشك أنها تستند الى ذراعه فيدفعها برفق ، ثم اندلق نور الشقة فى الحجرات كلها ، وأخذت الأقدام لا تكف عن التجـوال يصحبها صـوت مقـاعد تنقل من مكانها ، ثم ساد الهدوء ، وأطفئت الأنـوار ، وأغلقت النـوافذ ، فتشاغلت عنهما وأنا أبتسم ، ونمت ويدى اليمنى تحت الوسادة تحت خدى وقد اعتزمت أمرا ٠

استيقظت مبكرا وأعـددت فطـورا جميلا لاثنين وفاكهة منتقاة ، وأرسلتها مع الخـادم على أكبر صينية عندى ، فأنا من دقة قديمة ٠ ومن عادات قومى أن يقدم الجار هكذا تحيته للجار الجديد ، ولعلى أيضا كنت متلهفا على فتح باب التعارف ٠

طرقا بابى فى أول مرة نزلا فيها معا أى بعد ثلاثة أيام لم يبرحا الدار قط خلالها ، وهكذا رأيت مصطفى ووجيهة ٠ هو شاب يميل الى البدانة ، تزداد وضوحا عند تأمل يديه البضتين الصغيرتين لاتتناسب بين حجمهما وحجم جسمه ، لاتخطىء العين حرصه على أناقته وانسجام بذلته ونظافة ياقته وقميصه ، دب الصلع فى مقدم رأسه وكأنما رش عليها من كوز عجين الكنافة شعراته القليلة ،

تحسبها ملصقة بصمغ ، يلبس نظارة طبية غليظة تضخم سواد عينيه فلاتدرى من أية زاوية ينظر اليك ، وهل هو أحول ام لا ، وأقلقنى منـه انه يجذب فجـأة وسط الحديث نفسا من أحد منخريه دون الآخر ، يتقلص على الفور خده المجاور ، وتزر عينـه وتلتفت اليهما خطفا أرنبة أنفه ٠

أما وجيهة فقد خيبت آمالى ،شعرها الأصفر المصبوغ بلون فاقع سوقى يموع النفس ، هائش على رأسها وفوق ظهرها ، وجهها مستدير ، ملظلظة الخد والذراع ، فى يدها أسـاور من كل صنف وشـكل ، صاحبتها سـكرى بدندنتها ، هذه هى منتهى العياقة عندها ، لو ذهبت الى زار لفقرت على صـاجات بائع عرقسوس ، ولما جلست اندك بعضها فى بعض ، وتقوست رقبتها مثل السوستة فانغرز رأسها بين الكتفين وبرز لها نهدان ضخمان ٠

ولكن ماضير كل هذا ، ورونق الشباب قد جللها من رأسها الى قدمها ، بشرة صافية موردة ، وعينان براقتان مرحتان ، وأسنان سليمة تلمع ، وصوت رخيم طروب ، بخار جسدها عـرف زكى ، ولمسات أصـابعها تجمع بين الضعف والحنان ٠

حكمت أنها ليست من طينته · أين وجدها ؟ ما الذى فتنه منها ؟ كيف طمس سحرها بصره ، أسئلة بايخـة جدا · الآعمى يتبين أنهما واقعان فى حب عنيف ، انه يكاد يأكلها بنظراته وهي تكاد تمضغه بأسنانها ، لايقوى أمامها على الجلوس فترة طويلة ، فهو يقوم ويذرع الحجرة جيئة وذهابا ويداه وراء ظهره يتأجج بالنشوة والفرح ، يطبطب على ظهرها مرة وعلى ظهرى مرة ، اناء حبه امتلأ وفاض ، انه يضحك من قلبه وبملء فمه ، أما هى ·· فمن أجله وحده ابتسامتها ، فاذا غاب غابت ، كالظل مع النور ، هى أمامه تحس أنها تجلس فى ضوء مصباح فى بيت آمن والليل عاصف غطيس ، آو أمام مدفئة فى ليلة قر ، انه الرى الذى تنشقه جذورها ويتمشى فى غصونها ويورق عليه زهورها، لو فتحت قلبها لوجدته فيه ، ان رسمه يتلكأ قليلا على مقلتيها اذا ولى شخصه عنها ، كنت أتوقع كلما لمسها أمامى أن تنبعث من اللمسة شرارة تئز، ولم يتركنى فى أول لقـاء حتى سـألنى بلهجة المنتصر الفخور :

ـ بذمتك أرأيت ياعم كم هى جميلة ·· زوجتى المقطقوطة ؟ كانت منيتى طـول حيـاتى آن أتزوج من شقراء ·

وعشت في ظلهما بالرغم منى ، توثقت بيننا صداقة وخلطة ورفع تكليف ، كأنى صمبت عليهما في وحدتى ، فقررا أن يضعانى تحت جناحهما ، وامتلأ البيت حبورا ، ألفت ليالى طويلة مليئة بالضجة كأنما تدور فوق السقف (ماتش كورة) .. انه يطاردها وتطارده ، يصطدمان بالأثاث ويقعان فوق المقاعد وتتعالى الضحكات ، ألفته في أمسيات كثيرة يهبط السلم جريا ويعود وفى يده زجاجة ملفوفة ، ثم بعد ثوان يهبط السلم قفزا ويعود وفي يده قرطاس فاكهة ، لم أره يصعد السلم الا خطفا كأنه مقبل لاطفاء حريق ، حبل غسيل مشخلع تتدلى منه قمصان نوم وملابس حريمى داخلية وأثواب تجمع كل ألوان الشفق . لو أقيم في بيتنا فرح لما احتاج لغيرها زينة . أصبحت أشم في السلم وهو خال جميع روائح الغورية من عطور وحناء ، فما بالك اذا كانت وجيهة طالعة أو نازلة . وهى تنزل تتحسس الدرج بطرف حذائها كأنها تمتحن ماء في حوض ستغتسل فيه ، نظرتها قبل قدميها تسعى على قدميها (ياأرض احفظى ماعليكى) وهى حين تطلع لا يجد تعبها عونا له الا في تقصعها وحركة متتالية من رقبتها كذراع مضخة يدوية ، يومهما يمضى على وتيرة واحدة ، يهبط مصطفى السلم مسرعا فى

الصباح الباكر ويعــود بعد قليل وبين ذراعيــه مطالب البيت ، فليس عندهما خادم ، وبعــد قليل أســمع باب الشقة يفتح وصوت وجيهة وهى تودعه وتوصيه أن يأخذ باله لنفسه ، وأسمع صوت قبــلات ، ويهبط مصطفى السلم يخبط الدرابزين يكاد يتعثر لأن وجهه ملتفت الى فوق ، وألمح وجهه من شراعة باب شقتى فأجــده مضيئا بسعادة مطمئنة ممتزجة بشىء من الجد ، الغالب ــ لاننى لا أسمع حركة ــ ان وجيهة تعود لفراشها لأنهما لم يناما الا بعد منتصف الليل بكثير ، ألا ينتهى كلامهما وعبثهما؟ كيف يستطيعان وحدهما قضاء الوقت الطويل كله بلا ملل والوجه فى الوجه ؟ وقبيل الظهر أسمع وقع أقدامها ووش وابور الغاز · لاتطبخ وجيهة صنفا جديدا الا أرسلت لى طبقا منه · وبعد الساعة الثانية ، يقبل مصطفى وهو يحمل قرطاس فاكهة أو بطيخة أو شــمامة كأنه يحضن بين ذراعيه طفلا عزيزا ، ثم تنقطع الحركة وقت القيلولة الى قرب الغروب فينزلان معا وقد أكمل كل منهما أناقته وزينته · تضع ذراعها فى ذراعه ، جسمها ملتصق به ، رأسها مائل على كتفه وشعرها الأصفر عى ضهرها زادت نكشته بعد خطوتين ·· ثم يعودان فى العاشرة ، وأحيانا

بعد منتصف الليل ·· ويبدآن من جديد ماتش الكورة والضحكات العالية · وحبل الغسيل يلبس ويخلع يوما بعد يوم أشاير فرايحى ·

شـــهور متتالية وحبهما لم ينقص قيراطا واحدا ، وسؤاله لى لايتغير :

ـ بذمتك ·· ألا ترى كم هى جميلة ·· زوجتى القطقوطة ؟

وذات ليلة ، قبيل الفجر ، استيقظت على دق شـــديد متعجل على باب شـــقتى ، فاســـتعذت بالله وقمت ، انه مصطفى يدخل كالمجنون ويقول :

ـ عندك أدوية كثيرة ، فهـــل من بينها دواء يوقف القىء ··؟ وجيهة مريضة منـــذ أن عدنا ، أظنـــه هو السمك الذى أكلناه ، عليه لعنة الله ، أنا خائف لأن لون قيئها أسود ··!!

قلت له : «لعلها علامات الأمومة» فأجاب من فوره :

ـ المهم أن لا تتألم ·

وفى الصباح ، تأخر فى خروجه ، وعاد مبكرا ، ولم

يكد يصعد حتى نزل من فوره وقال ووجهه أصفر ويداه مرتعشتان ٠

ـ جسدها كالثلج ، دبرني ماذا أفعل ؟

استدعينا الطبيب ، ولم يكتمني من وراء ظهر مصطفى أننا تأخرنا فى استدعائه وأنها مصابة بتسمم وهبوط شديد فى القلب ، أصبح يفوت كل ضربتين ضربة وأسرعت الى التليفون عند البقال ، وجرت ٠ أأنادى بوليس النجدة أم الاسعاف ٠ وعجزت يدى من الدهشة أن تجد الرقم الذى أريده ، وبدا لى أن أكبر مشكلة فى الحياة ، هى العثور وقت الهلع على رقم فى دفتر التليفون ٠٠!!

وأخيرا ٠ وصلت عربة الاسعاف ، وصعدت مع القادمين ٠ فلما رأوا وجيهة رفضوا نقلها ، كان واضحا أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة ٠

ظل مصطفى طول الليل راكعا على الأرض بجانب الفراش ممسكا بيد الجثة يبكى وينهنه بحرقة ، وتنبعث من كهف جوفه صرخات ممزقة ، هو والبكاء لسان واحد لأفعى مشقوق نصفين ، كأنما بفضه نمت فى الدنيا حلقة الجزع فى أبهى صورة ، كل جزع سابق كان مسخا

يتهيأ للكمال . ليس هذا برجل يبكي امرأة . وانما سمعت الآذان لأول مرة بكاء بكاء الانســان على قدر أخــرجه مطرودا من الجنة ، وحرمه رؤية وجه ربه ، لم يترك اليد حتى بعد أن امتلأت الحجــرة بنساء كثيرات من الأسرتين يضطربن ويولولن ، ويختفي في الضجة صــوت مقرئة كفيفة ، حاولنا عبثا أن نزيحه من مكانه فلم نستطع ، كأن حزنه صب من حديد ، لم أوقن بطيبة قلبه وبراءة طبعه الا وهو منهدم ، لم يسنده حساب أو ذرة من الأنانية . لم تهمس غريزته ككل الأحياء أمام الميت ولو كان أعز الاعزاء : «يافرحتى لم يكن الدور على» .

وفى الصباح ، ونحن نسير فى الجنازة وراء نعش عروس تتبختر ، مزين بالطرحة والفل ، كنت أرى لأول مرة أبشع صورة لحطام رجل ، لاشك أن يديه عملتا فى غفلة منــه فــلا أدرى كيف واتاه عقله ، ومن قعر أى صندوق استخرج هذه البذلة السوداء القديمة الضــيقة القصيرة ، التصق قماش بنطلونها بساقيه ، بدا فيها كأن حدأة الفقر خطفته فجأة بمخلبيها ، وبقى وسط الزحام مدلدلا كالمشنوق ، شعرات راسه هشيم على الصدغين ، تكشفت له صلعة صفراء لاتخلو من نقر وأخاديد ، هبطت نظارته مع الدموع الى منتصف أنفــه ، زهــرة العين من

فوقها مضعضعة متهرئة كأنما سحقتها على الأرض أحذية غلاظ ، هي من دم يطفو فوقها بؤبؤ غريق ، يمسك بذراعيه على الجنبين رجل من آقاربه وآنا ، ويمشى بيننا مشية المساق الى حجرة الاعدام ، انخلع قلبى اليه • ووددت لو أننى أم وهو طفلى فآخذه فى حضنى وماآزال أناغيه حتى يهدأ وينام ، أحسست به كفرخ عصفور وقع من عشه ، ملبد الزغب بالتراب ، منقاره العطش مفتوح ككف يبسطها متضرع ، وهالنا ساعة الدفن آنه نزل الى القبر وأبى الخروج وهو يصرخ بصوت مبحوح «دعونى معها ! أريد أن أموت وأدفن بجانبها ، لاآريد آن أعيش أعيش لمن بعدها ؟!»

واستطعنا بعد لأى ونحن ننزل درجة الى الظلام ان تصل أيدينا الممتدة الى ذراعه ونشده بقوة حتى أخرجناه •

أبى مصطفى أن يترك الدار ويذهب الى آسرته • قال انه يريد أن لايحرم من رائحة وجيهة ، كلما فتح دولابا ورأى ثيابها ، وألقى مراسيه آغلب الوقت عندى، مر اليوم الأول لاينقطع فيه عن التدخين ، لايذوق الأكل، يقطع الحجرة ذهابا وايابا ، ويده وراء ظهره ، هذه الاعياء بعد منتصف الليل فارتمى ونام ببذلته ثم هب

قبل الفجر وهو هائج كالمجنـون ، ومن جـديد بدأت جولته فى القفص ، نوبات البكاء متقاربة ، يضع كفه على وجهه وينهنه ، أصبح صوته فحيحا ، وفى اليوم التالى قدمت له طعـاما وألححت عليه الحاحا شـديدا أن يجلس ويأكل ، فعاف الأطباق كلها وأخذ قطعة من الجبن الأبيض وحاول بصعوبة مضغها وبلعها ، وقطع اللقمة الثانية . وقبل أن يعدها رماها وقام ، أعطيته فنجان قهوة ، فلم تحسن يده حمله لارتعاشـها ، وشربهـا كطفل يتعـلم الشرب ، بلل حوافى فمه واندلق بعضـها على الطبق ، هكذا فعل ايضا فى اليوم الثانى ، ولكنى رايته فى اليوم الثالث حين آفرغ الفنجان ، أمال الطبق على فمه ومص طلاءه ، محال آن يكون مصطفى ـ الذى طالما ملأ بيتى بمرحه وضحكاته ـ هو هذا الرجل الذى أصبح مجـرد ثقل فى الحياة ، كوتر العـود حين يرخى تمـوت عليه اللمسة فلا يرن ولا يطن ، قميصه متسخ ، رباط حذائه مفـكوك ، لحيتـه بنت حسك قمىء يـوحى بالجفـاف والقمامة ، تفوح من جسده رائحة العرق ، يده الناعمة أصبحت كورقة سـنفرة ، وكلامه من كثرة التـكرار كالطوب ، وحركاته تعثر آعمى آو سكران ، وخيل الى أن عينيه تبرقان أحيانا رغم الحزن بوميض خنجر متستر

في يـد قاتل ، ونطقت لى من تحت القنـاع قـوة كلها جبروت وعزم وعنفوان ، تنظر الى شزرا بعداء لأنى لست مثله كسيحا مكبلا بالحزن • ماهى هذه القوة ••؟!!

وبدأ مصطفي يطلب قليـلا من الطعام ، ويطلب القهوة بنفسه ، وينـام ما بعد الفجـر ، لكنه مصر على البقاء في الدار لايخرج قط ، وعلى أن لايحلق لحيته وأن لاينقطع عن التدخين وعن ذرع الحجرة ذهابا وايابا ، وعن البكاء بصـوت مرتفع كلمـا جاء اسم وجيهة على لسانه •

وانتهت أيام أجازته فخرج لعمله ببذلته السوداء القديمة الضيقة القصيرة ، ولكن نظارته عادت الى مكانها ورباط حـذائه مشـدود وقميصه نظيف ، وذهب أولا للحلاق وأسلم له لحيته ، أصبح اذا عاد لايخرج ، يوزع وقته بين شقته وشقتى ، لايطيق أن يأكل وحده ، وأصر على أن يأتى لى هو نفسه كل يوم بفاكهة اليوم ، وعادت القراطيس الى حضنه ، ولكنه ما آكل من فاكهة جديدة الا دمعت عينه ، يمسـحها بمنديل لوجيهة يحتفظ به فى جيبه • وفجأة طرطقت أذناى ذات يوم وأنا أسمعه يضحك ملء فمه حين سمع جارة لنا سليطة اللسان تنهال من الشباك على غريمة لها بسباب من الصنف الحيانى • وقام

مصطفى وفتح الراديو اذ كان قد حان موعد نشرة الأخبار ٠

وأخبرني بعد أيام أنه ذاهب مع زملائه لمقابلة الوزير ، فرأيته في الصباح يخرج بأحسن بذلة عنده وبأشيك رباط رقبة ٠ وقبل أن ينصرف قال لى :

ـ ماقولك فى اكلة ملوخية اليوم ؟! ان نفسى تشتاق اليها ٠ وتسهر الليلة لسماع أم كلثوم ، انها ستغنى أغنية جديدة ٠٠!

وحين حاولت بعد خروجه أن ألبس ثيابى ٠ لم أشعر أن يدى اليسرى تنقبض على عندما أحركها ، وأحسست أنها تناديني بصوت خافت لتهمس الى بخير ، فلما خلعت الضماد وجدت ماء الحياة والصحة يترقرق في صفحتها ، مجلوة ٠٠ مبرأة من السقم ، فهمت أن خبرها هو عدولها عن الاضراب العنيد الذى رتعت فيه. ووجدت فيه أكبر دلع من فرط عنايتى بها ، كنت قد نسيت همها أياما طويلة لأنى أغرقته فى هم صديقى مصطفى ٠ أيكون فى النسيان وحده سر شفائها ؟!

ومرت أيام تنساب كالرمل فى يد الريح حتى ينتقل الكثيب كله من مكان الى مكان ، لا أحد يدرى

متى وكيف ، فاذا بمصطفى يخبرني ذات يوم أنه ذاهب للاقامة مع أسرته لأن حياة الاعزب الوحيد فوضى ، وأن أكثر ملابسه قد ضاع بين الغسالة والمكواء ٠

وغاب عنى مصطفى والدنيا تلاهى ، ومضت مدة أظنها لاتزيد عن سنة على وفاة وجيهة ، فاذا بمصطفى يدق بابى ذات يوم ويدخل يسحب وراءه فتاة تتقدم على استحياء ، سمراء قصيرة نحيلة ، شعرها أسود فاحم، تكوم قليلة فوق رأسها ، واشار قائلا وهو يضحك :

حضرتها تبقى عروستى ٠٠ وحضرتى ٠٠ أبقى عريسها ٠ تسمح تسلم على عواطف !

وعلمت منه فيما بعد أنها أرملة مثله ، وأنها فقيرة باعت كل أثاثها قطعة قطعة ٠ وحين عرفها في محيط أسرته كانت قد أصبحت على الحديدة ، فاذا بقلبه يحنو عليها حنو غصن ندى ٠ ألم أقل لك ان مصطفى رجل طيب ؟ أحس كأنه عثر على طفل ضائع فى مسالك المدينة ، تكاد تدهسه زحمتها ، ولم يلبث الحنو حين فاض به قلبه أن التقت يده بيد بنظرة من عيون عسلية وديعة ٠٠ مستسلمة ٠ لاتعرف الشر ، إن تكن كنوزها قد نفدت ، فانها كأمنا الأرض تحيا بعد موات ، اذا

جاءها الغيث وتعود تهز أعطافها وهى أبهى رواء ، ومن لمسة اليدين انبثق مارد ليس بغريب على مصطفى ·· اسمه الحب ·

وجاءنى مصطفى وحده بعد ذلك ، وتحول حديثه سريعا الى الأزمة العامة وأزمته هو ، وشعرت أنه يمهد له عـذرا ويحـاول أن يبرىء نفسه من تهمة تنخر فى قلبه اذ قال بعد ذلك :

ـ الله يلعن أبو أزمة المساكن ، كان نفسى ألاقى شقة تانية أعزل فيها وتكون دخلتنا هناك ·

سكت والتزمت الصمت ولم أرد ، فأردف :

ـ عواطف ماعندهاش مانع تيجى فى الشقة القديمة وعلى العفش بتـاعى بس عـاوزة ولو سرير جـديد لكن ··

فقاطعته لأحمل عنه الوزر وقلت له :

ـ لو كنت محلك وظروفى مثل ظـروفك لسمعت كلامها ، الظاهر انها بنت عاقلة وقنوعة ·

ويمر الفصل الأخير كالفصل الأول ، ليس بينهما ستار ينزل ويرتفع ، ماتش الكورة يعود من جديد فوق

السقف ، الضحكات تتعالى ، مصطفى ينزل فى الصباح ليأتى بمطالب البيت ويعود حاملا قراطيس الفاكهة ، حبل غسيلهم يزهر من جديد ، وها هو ذا مصطفى مع عواطف فى شقتى ، هى جالسة (كحمامة متستتة فوق سور خرابة أمام ذكر له صبوة يتحنجل) ابتسامتها الصامتة موزعة بين عينيها وشفتيها ، أما هو فيذرع الحجرة ذهابا وايابا ويقهقه بملءفمه ، ويقول لى وعيناه مرحتان ، قد غاب عن نظرتهما وميض الحنق الذى أخافنى ذات يوم :

ـ بذمتك ٠٠ ألا ترى كم هى جميلة ٠٠ زوجتى القطقوطة ؟ كانت منيتى طول حياتى أن أتزوج من سمراء ٠٠!

أود أن لايكون قد لحظ أننى طأطأت رأسى ، لم أستطع أن أمنع نفسى من تذكر وجيهة ، وخيل الى ان روحها معنا وذكرت باستهزاء يوم تمنيت أن أكون أما تلقم الثدى وليدها الحزين فما نفعه درها ، ومضى كصغار القطط يهتدى وحده الى ثدى أمه الحياة التى لا أم غيرها للسلوك والنسيان ، فلما ذكرت هذا رفعت رأسى وأقسمت فى سرى أن لا أحزن على شىء قط . مادام كل حزن مآله فى هذه الدنيا الى النسيان ، ومع

ذلك أحسست لقسمى بشعور غامض غريب ، خليط من البجاحة والامتعاض ، ومن الخــوف والاحتقار ، حين أدركت أنه قسم رجــل له عقــل وليس له قلب ، رجل أناني دنيء ٠

امرأة مسكينة

تقلبت الأم على الجنبين أغلب الليل ، وقامت قبيل الفجر ـ كما تفعل يوم سفرها بقطار الظهر • ومشت محموقة الى الحمام لتتوضأ ، لاتبالى على غير عادتها بوقع قبقابها على البلاط ، يود قلبها أن تستيقظ فتحية زوجة بنها قبل موعدها ، يغيظها منها أنها نؤوم الضحى ، بل تود أن يستيقظ كل من فى البيت ، لتجتمع الأسرة كلها من أول النهار ، وتعد البزازات لحفيدها ميمى ، وتأتيها شقيقته آمـال فتأخـذها فى حضنها وهى على سـجادة الصلاة ، وتمد يدها من تحت الطرحة البيضاء وتربت على رأسها وتدعو لها وترقيها وهى تتفل حولها • انها أصبحت على غير مألوف طبعها لاتطيق الوحدة ، وأمامهم يوم مزدحم وزيارة للمستشفى وآكثر من مشوار ، وحين تمتمت والماء ينصب على كفيها : «أشهد أن لا اله الا الله» كان وجهها لايزال ينطق بالتضعضع ، يختلط الاعياء فوقه بتجهم العجـوز ، ولكنها حين أضـافت :

«وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله» طفرت الدموع السخان فجأة من عينيها وأصبح لها وجه طفل مسحته وبللته أواخر نوبة من البكاء · ان سيرة الرسول شفيع أمته يوم القيامة تذكرها دائما بالموت ، وتمس قلبها بحزن حنون ، حتى وهي في عرس ، فكيف بها اليوم وهي ضائعة مغمومة ؟ ورفعت كفيها وجبهتها الى السقف ، كأن نظرتها لاتراه وتنفذ منه الى السماء ، وأنت بصوت متهدج ، بسؤال هو في حقيقة الأمر دعاء وابتهال :

ـ ياترى ياابني يافؤاد كيف حالك اليوم وكيف أصبحت ؟

بعد ساعة كانوا قد فرغوا من الفطور بسرعة وبغير نفس ، بلع لا أكل ، ووقفت فتحية امام المرآة ترتدى ملابسها وتستعد للخروج ، انها أقصر قامة وأكثر بدانة من صورتها لدى الغرباء ، أحذيتها كلها ذات كعب عال ، والمشد الذى تلبسه بجهد يضغط جسمها الفاشل بعد ولادتين وسقط ثلاث مرات ، الى خصر ضامر فوق عجيزتها ، العينان اللوزيتان من أثر الكحل تراهما في المرآة في صباحها دائرتين ضيقتين ، واحمر جفناهما من السهر ومسح المنديل ، وان بقى

الانسان الأسود هو هو في يقظته وصمرده وتحفزه وعميق فهمه ، هذا الماء المنعقد له اشعاع جوهر كريم لايتحطم . واجهتها مشكلة قديمة فى صورة جديدة لم تصادفها من قبل ، ليس الخيار هذه المرة بين ذوق وذوق ، او لون ولون . بل بين وقع ووقع ، أى ثوب ترتدى ؟ انها زوجة وقعت فى نكبة ، وزوجها فؤاد مريض لا هو ميت ولا هو حى ، هى ذاهبة لاستجداء عطف رئيسه ، وسيحيط بها كثير من زملائه ، فهل الأنسب لها أن تخرج كعادتها فى أتم زينة فيكون من وسائلها اغراء الأنثى وهو سلاح لايخيب ، وتبرهن فوق ذلك أنها امرأة من معدن أصيل لايصدأ بسهولة ، ستلحظ العين شجاعتها كما تلحظ فتنتها ، أم تخرج بلا زينة ، مهملة الثياب والشعر . فينطق حالها بالوفاء وانشغال البال والتعاسة ، فتكون أقدر على استدرار العطف ، هى تعلم أن أفئدتهم لن تنشرح الا اذا رأوها تذرف الدمع أو على الأقل تشيح بوجهها وتمسح عينيها بالمنديل ، لهذه الفكرة صعبت عليها نفسها ولعنت قسمتها السوداء ونطقت بانفجار المحنق .

ـ ياترى ياربى ماذا سيحدث لنا غدا ؟!

وأخيرا اهتدت الى الحكمة ، خير الأمور الوسط ،

لبست المشد وثوبا جميلا فوقه معطف قديم ، تركت شعرها وكحلت عينيها ، فكحل لبان الدكر نوع من الدواء ، واختارت حقيبة يد صفراء ، عميقة ، لها حمالة تعلق بها على الكتف ، تشبه حقيبة كمسارية المترو ، توحي أنها قد تضع فيها وهي راجعة بعض لوازم البيت ، ونبهت على ذاكرتها أن تشترى في طريقها عرضحال تمغة ، فمن يدرى ؟

دخلت على حماتها لتسلم عليها فوجدت آمال مكورة لصيقة بجدتها ، فغرزتها بطعن من أصبعها تحت الابط وهي تقول :

ـ هيا هيا الى المدرسة ، انا لا أحب الدلع ، ماذا حدث حتى تبقى بالدار ؟ بابا بخير وغدا يعود الينا بالسلامة ، من يراك يظن أننا في مأتم ، أنا أكره التفويل ٠

وجهت اليها آمال نظرةاسترحام وعتاب ، وأحست أن جدتها تود أن تدافع عنها ، وحمدت لها أنها لم تتكلم ، حديث القلوب يغني عن الافصاح ، لم تبال فتحية بنظرة ابنتها ، ولعلها لم تقو على مواجهتها فالتفتت الى حماتها وقالت بصوت مسكين قد هبطت حدته :

ـ أنا خارجة يانينا ، ادعي لى ، وأرجو أن أعود بسرعة ، لنذهب ونلحق الجماعة ساعة الزيارة قبل الظهر ٠

وقبل أن تخرج ، أرادت أن تطمئن على ميمى ، وجدته راقدا على ظهره في مهده ، يرفس بيديه ويلكم بقدميه ، ويضحك للملائكة ويناغيها ، لايعرف بعد معنى اليوم ومعنى الغد ٠ مالت عليه ، كادت تقطع وجهه تقبيلا ، وآن أحنقها منه هذه الابتسامة في غير أوانها ، هى خلل فى الطبيعة ، تكاد تنطق بالسخرية من هياجهم وتخبطهم ، انه يتعالى عليهم بأنه الذكى الوحيد بينهم ، وان الحل قد خفى عنهم دونه وهو واضح كل الوضوح ، وهتفت له بذراعها وهى منصرفة :

ـ طور الله فى برسيمه !

***

لما خرجت انضم نسيم الصباح الرطب الى عزمها فى دفعها الى المسير بخطى سريعة قصيرة ، رأسها محنى على صدرها ، ذهنها مكوك أكثر من قدميها سرعة ، تارة يجرى الى الأمام وتارة الى الوراء ، انها تحس

بتعب شديد لأنها لم تنعم بنوم هادىء منذ ليال عديدة، هى لم تألف الرقاد وحدها في فراش شاغر ، الوحدة فيه تؤرقها ، حتى فى الليالى التى تعقب الخصام فى النهار فيقاطعها فؤاد ، ويحزن ويلتزم الصمت وتعرض هى عنه · كان يكفى أن يرقد بجانبها ولو أدار لها ظهره حتى تستمد من سماع صوت تنفسه والاحساس بدفء جسمه أنيسا يعيد النوم لعينيها ، سرها وهى تناجى نفسها وهى ماشية أن تذكر أنها كانت هى المبادرة دائما بالصلح ، وتنسى كل ماحدث · هى سعيدة لأن الله سبحانه خلقها بأعصاب قوية · هيهات أن تطبق عليها الهموم ، حتى لو جاءتها لاتتركها تنفذ الى قرارة نفسها فيكون البلاء مزدوجا : هموم ونفس مريضة ، بل تبقيها فى ميدانها الخارجى تصارعها فيه وتبقى نفسها ناجية ، تنزلق عليها هذه الهموم كالماء فوق الرخام ، انها تعلم أن أصحابها وأهلها يصفونها بالشجاعة والثبات ، أما تطوعهم بوصفهم لها فى غيبتها أنها مع ذلك أنانية قاسية فاتهام باطل ، ماهى فى الحقيقة الا امرأة عملية ، عقلها فى رأسها ، أما فؤاد وان سارع هو أيضا للصلح ، وارتاح له ، وحمد لها اعادة الكلام ولو نفاقا لبرهة وعاد الى نغمته قبل الخصام

ليستطيع أن يأكل ويشرب وينام ويدخل ويخرج ويقلع ويلبس ، الا أنه كما تحس منه تبقى ذكرى الخصام محقونة فى نفسه ، يكتمها ولا ينساها ، ينفجر أحيانا ويقول لها انه لايستطيع أن يهضم أو يغفر الأسية تنزل به بلا جريرة منه ومن الباب للطاق ، ومتى ؟ فى عين الوقت الذى يتوقع منها الاكرام والشكر ، أو فى عز الوقت الذى تكون فيه أعصابه متوترة محتاجة أشد الاحتياج لكلمة طيبة ولو كاذبة تنزل على قلبه بردا وسلاما ، الله يخرب بيتها .. هكذا وهكذا ... هياج صبيانى وحماقة فارغة وغرق فى شبر ماء ، لماذا لايقتدى بها ؟ الخصام الجديد عندها حادثة طارئة ، تأخذ قسمتها وتتمشى ، أما عنده فارث عتيد وذيل سلسلة طويلة تغل العنق ، لأن الصلح فى كل مرة يتم فى حكمة بتغليب رأيها على رأيه ، وانهزامه أمامها طلبا للسلامة ، وما عيب ذلك ؟ وهل لفؤاد رأى يوصل لبر ؟ مامعنى التمسك برأى خاطىء ؟ لمجرد الاستبداد؟ انه رجل لم يتقدم به العمر منذ طفولته ، لم تحسب يوم لقيته فى منزل احدى قريباتها أنه سيجرى وراءها ويسيل لعابه ويلح عليها أن تتزوج منه لأنه ميت فى دباديب رجليها ، كانت فتحية تتمنى أن لايندلق عليها

كل هذا الاندلاق ويضع عقله فى رأسه ويتم دراسة الحقوق وينال الشهادة ، فهمت بعد ذلك أنه يهرب اليها ويلوذ بها من أحضان تخنقه بها أسرة يأكل بعضها بعضا ، أسرة كبيرة عتيقة متشابكة لاتعرف فيها أبناء الأعمام من أبناء الخالات من كثرة زواج بعضهم لبعض جيلا بعد جيل ، والنزاع كله على ثلاثة بيوت مخلخلة فى حى الخليفة وعشرين فدانا من أرض آتلفها الاهمال لايعرف أحد منهم حدودها ، انها لاتندم الى اليوم أن انعطف له قلبها : أدب جم أصيل ، وجسم رياضى لدن، وحياء لذيذ يغمر الوجه عند الكسوف بلون الورد ، وعين منكسرة عسلية صافية مبرأة من الخيانة ، والبجاحة ، مأمونة العاقبة ، وهو فوق ذلك ابن فن ، حين يكون رائق البال يعزف على البيانو أغانى ضحلت من شدة ابتذالها فينطقها من جديد بشجن عميق لايخلو من تقصع وشخلعة وكانت هى حين قابلته يتيمة الأبوين تعيش فى كنف جدتها ، ليس لها من سند أو معين الا معاش زهيد عن أبيها ، أحست أن القدر يختارها لمعركة ، وأنها هى وحدها القادرة على الانتصار فيها - انها لاترى بأسا من أن تعيش معه فى مبدأ الأمر على ايراده الضئيل الى أن يأخذ الله بيده ،

فقبلته ، ولم تنزعج حين رأت هذا الفتى الفاره يبكى بين يديها ليلة الدخلة وينهنه كطفل ، وفوجئت بأن هذا الطفل المدين لها بانقاذه يحاول فى أيام الزواج الأولى أن يفرض عليها ارادته ، عجيبة ! لم يـدم الصراع طويلا وانتهى بأن أسـلم فؤاد اليهـا نفسه وطاعته وجيبه ، فهل طغت ؟ كلا ! بل وقفت بجانبه ، أدركت أنه لن يقوى على مشـقة المذاكرة فأخـرجته من كلية الحقوق وأدخلته مدرسة اللاسـلكى للطـيران المدنى ، وأصبح فى غمضة عين فى مركز مرموق وصاحب مرتب محترم ، وحـل الرخـاء وانقضت أيام الشـدة ، الله لايرجعها ولا يرجع اليوم الذى اضـطرت فيه أن تبيع البيانو ، قامت بواجبها ، هى التى رتبت له بيتا ينعم بالعفاف والنظافة وضبط الميزانية ، وهى التى عمرت بيوت حى الخليفة ونجحت فى فرز نصيب زوجها بحكم قضائى ، وأصلحت الأرض فأصبحت جنة وسط خراب اذا كان الهيام قد بلغ حده مع الزمن ثم انقلب الى ألفة، ورابطة الزواج الى عشرة انسان لانسان لا أنثى بذكر والهواية الى وظيفة ، فهذا أمر طبيعي ، وهذا هو شأن الناس جميعا ، هذه هى سنة الحياة ٠ إن مجيء الأولاد يعيد ترتيب القيم والهموم على نحو آخـر ، جيل ينبغى

أن ينسى نفسه ودلعه من أجل جيل جـديد صاعد ، ان كانت قد نزعته من اسرة أمه وأبيه حتى قبل القضـية فلأن أقرباءه جميعا متعبون جـدا ، ليس وراءهم الا النكد وخوتة الدماغ ، يكفيه لكى لايشعر بالوحدة أنه أصبح لايخـرج الا رجلها على رجله ، لاتسـتطيع عين غريبة أن تلحظ أقل خلل فى البيت ، اذا تسربت أنباء الخصام فمن تفليت لسان فؤاد لا لسانها هى ، انها لاتحب الثرثرة والشكوى ولا تأمن أحـدا قط على سرها ، كل انسان طبيعى غير خيالى لو كان مكان فؤاد لعـد نفسه سعيدا ، كانت كلمة الحق تخرج أحيـانا من فمها مؤلمة وان كانت صادقة ملفوفة بالضحك ، فتقول له وهى به ودود حدوب : بذمتك ، لو انك تزوجت غـيرى ، فتاة لعوبا من الصنف اياه ،أما كانت لعبت بذيلها ، وشلفطت حيـاتك وجابتك الأرض ، وسممت عيشك بالشـكوك والريب ؟

لو كانت مرآة الصـباح لاتزال أمامهـا فى تلك اللحظة وهى ماشـية لرأت فتحية على شفتيها ابتسـامة مريرة ، فؤاد مغفل ! لكنها هى بسلامتها شيخة المغفلين . لقد ظنت فى العهد الأخير أن السـاقية تحت التعريشة ستظل تدور ، انقلب صرير عصلجة التروس مع الأيام

الى نغم سلس مخدر ، واصبح الجلد منحسا لايؤلمه سوط الحافر غليظا لايجرحه مسمار أو فص حجــر ، وقدور الماء تصب بانتظــام فى أرض لا هى غــارقة ولا هى مشحطة ، اليوم كالامس ، والغد كاليوم • مغفل فؤاد ! هذه هى الطمأنينة ، سر السعادة ، ينبغى أن يقبل لها اليد ظهر البطن ، ولكنه خلا بها ، خانها وانهار من وراء ظهرها بغير سابق انذار ، هل نسى أن لهما بنتا وطفلا رضيعا ؟

★★★

لم تكد فتحية تدخل فرع شركة الطيران فى المدينة حتى أحاط بها رجال تعرف أكثرهم ، سلموا عليها جميعا باعزاز وعطف شديد ، هم فى سباق بينهم ، من منهم يقدم لها المقعد ومن منهم يطلب لهــا القهوة ، بلعت ريقها حبة ، وحين تكلموا لم يدر الحديث كما فى البيت عن اليوم أو الغد ، بل عن الأمس ، وقفزت كلمة «كان» بجلالة قدرها الى أوائل الجمــل ، وتلاحقت على أذنهــا عبارات كثيرة لايمنع تشابهها من تكرارها :

ـ كان فؤاد والله رجــلا طيبا لايستحق ماجــرى له !

ـ كان مع ذلك كثير الضحك ، يحب المزاج ، فماذا

جرى له ؟ كنا جميعا لانتصور أن نسمع مثل هذا الخبر ، شدة وتفوت ٠

ـ كان يرهق نفسه بالعمل وكنا ننصحه دائما أن يرفق بأعصابه ٠

ـ كان مع ذلك كثير الضحك ، يحب المزاح ، فماذا جرى له ؟

أحست فتحية أنها ليست زوجة بل أرملة تتلقى العزاء فرفعت رأسها وقالت برفق لايخلو من حزم :

ـ ممكن أقابل البيك الرئيس الآن أم هو مشغول ؟

أجابها أقرب الرجال اليها :

ـ حتى لو كان غارقا فى أذنيه فانه سيفضى نفسه فى استقبالك ٠

أوصلوها لباب المكتب ، وأسمعوها وراء ظهرها همس بعضهم لبعض :

ـ امرأة مسكينة ٠٠ كان الله فى عونها ٠

جلست فتحية أمام الرئيس والحمالة معلقة فى كتفها لم تنزعها وان جذبت الحقيبة ووضعتها فى حجرها، سيكون المنديل بذلك أقرب متناولا ، ففكت أزرار معطفها

فانكشف ثوبها ، انها جاءت لغرضين : الأول : أن يسمح الرئيس بأن تكون الاجازة المرضية مهما طالت بمرتب كامل ، قد يكون الحل أن يتكرم ويغمض عينيه قليلا ، ويقرر أن المرض حدث أثناء العمل وبسبب العمل • والغرض الثانى : أن يعمل على نقل زوجها الى مستشفى خاص ، من مخزن المتاع المهشم الى دار علاج تتكفل الشركة بنفقاتها •

★★★

سارع الرئيس ووعدها بأن يصرف لها مرتبا كاملا مدى ثلاثة أشهر ، ثم بعدها ربنا كريم ، ولماذا نستعجل البلاء قبل وقوعه ؟ أما النقل لمستشفى خاص فمتوقف على تقرير طبى من ادارة المستشفى الحكومى تقرر فيه أن المريض له مصلحة ولا ضرر عليه من نقله منها • أدركت أن نقبها جاء على شونه •

لما رآها تقوم على وجهها علامات الضيق قال لها :

ــ اجلسى ، دعينى أفكر قليلا •

أحنى رأسه وأخذ يخبط على المكتب بطرف قلمه ، ثم نظر اليها من تحت لتحت وقال :

ــ هل لديك شهادة مدرسية ؟

أدهشها هذا السؤال فلم تملك الا أن أجابت :

ــ لماذا تسأل ؟

ثم أسرعت تتم كلامها بلهفة :

ــ نعم ، لدى شهادة ٠

ــ ماهى ؟

ــ شهادة معهد التدبير المنزلى ٠

أحست أنه أصيب بخيبة أمل وعاد بقلم يدق على المكتب ، ثم قال :

ــ شوفى ياستى ، اننى خاضع لتعليمات ، انما أنا قولى مثل والدك أو مثل أخيك الأكبر ، يهمنى أمرك ، فؤاد كان عزيزا على ، اننى أحب أن نحتاط للمستقبل، وأرى أنك قد تصبحين فى موقف لابد لك فيه من الاعتماد على نفسك وحدك ، لذلك فكرت اذا كانت لديك شهادة أن أبحث لك عن وظيفة فى الشركة ، وربنا يساعد ، لكن حكاية التدبير المنزلى هذه صعبة حبتين ، نحن فى حاجة مثلا الى سكرتيرة تعرف الآلة الكاتبة ، عاملة تليفون لاتليق بك ٠

أجابته بحسرة :

ـ حين يميل البخت يميل مرة واحـدة ، على كل حال أنا شاكرة ٠

وهمت تقوم ولكنه آجلسها من جديد وقال :

ـ سأقترح تعيينك مشرفة على المواد الغذائية التى تشتريها الشركة لاعـداد وجبـات الأكل فى طائراتها لزبائنها ، فما قولك ؟ هذه الوظيفة سنخلقها لك خلقا ، اكراما لك ، لأنها ليست فى ميزانية الشركة ، تبقين بعقد مؤقت يتجدد مادام زوجك فى المستشفى ، فاذا خرج وبحثنا له عن عمل أقل مشقة تكون حاجتك أنت للوظيفة قد انقطعت ، ونبقى فى الداخل حبايب وفى الخارج حبايب ، فهـل تقبلين ؟ وهـل تسمح ظروفك بالعمل ؟

فاجأها العرض ودار ذهنها دورة سريعة جمعت كل دوافع الرفض أو القبول وهمت تقول له : «دعنى أفكر يومين» ولكنها انتهت الى أن التردد حماقة كبرى ، ليست هى التى تتهيب الدخول من باب ينفتح أمامها على غير انتظار ، وان كان من ورائه المجهول فأجابته :

ـ لم يكن فى حسـبانى قط أن يحـوجنى الزمان للعمـل ، أنا بفضـل فـؤاد ست بيت ، وقتى كله له

ولأولادى ، انــه كان يحملنى على كفــه ويقضى لى كل رغباتى ، ولكنى أدركت الآن من كلامك أنه ينبغى لى أن أفيق لنفسى وأحتاط للمستقبل ، فأنا أشكرك من كل قلبى وليكن من نصيبك دعاء آمه الصــالحة ودعــائى ، سأقبل الوظيفة ، وسأبذل كل جهدى للفوز برضائك ، بحيث أبيض وجهك ، ولاتندم على تعيينى ٠

قال لها : اننى سأقترح وأجرى وراء الاقتراح ، أما القرار فيصدره المدير العــام للشركة ، أظن أننى أستطيع اقناعه ، ولكن زيادة الخير خيران ٠ فهل تعرفين له واسطة ؟ ولكن لماذا ؟ اذهبى اليه بنفسك ، فحين يراك ويسمع قصتك من فمك لن يأبى قبول تعيينك بهذا العقد المؤقت ، انه رجل كريم وابن حلال ، والأنسب أيضا أن تقدمى له شهادة بأن فؤاد سيبقى تحت العلاج ستة أشهر على الأقل ٠

خرجت ، وحين جاوزت الباب فكرت لأول مرة فى حماتها فأطبقت فكيها وهمست لنفسها :

ــ سأعرف كيف انتصر عليها ٠ على كل حال هى زائرة مؤقتة ، هذه الكركوبة الحمقاء أم اللسان البارع فى التنبيط الكتيمى والتلقيح من بعيد لبعيد ٠ مسيرها أن تتركنا فى حالنا وتغور وتذهب للاقامة مع ابنتها ٠

★ ★ ★

بقيت آمال في البيت ، قالوا لها انها اذا صحبتهم فلن يبقى أحد يأخذ باله من ميمى ، ها قد جاء دورها وأصبح لهم اعتماد عليها فهى لم تعد صغيرة ، لايعلمون أن وقع الكذب والاحتيال على قلبها أشد مرارة واثارة للسخط من الحقيقة البشعة ، انهم لايريدون لها أن ترى أباها فى المستشفى ، هى تعلم أنهم يخشـون أن تبكى وتحدث ضجة ولخمة ، وهم ينتزعون يـدها من يده ، وهيهات أن يصدقوها اذا أقسمت لهم بأنها ستظل صامتة عاقلة مؤدبة ، هى لاتريد الا أن ترى أباها ، لن تكلمه، اللهم الا اذا بدأ هو أولا فتعرف نـوع كلامه وتتدبر جوابها . انها واثقة أنه لن يهيج من كلامها كما هاج فى البيت آخر يوم .

وعلى باب المستشفى وحسب الموعد تقابلت فتحية وحماتها مع بقية الأسرة ، أخ شقيق لفؤاد وأخوان لأب وأخت لأم ، ثم عدد غير قليل من زملائه فى الشركة ، فى أيديهم جميعا لفـائف الهـدايا ، بعضـهم بادى الشجاعة ،وبعضهم يكتم الخوف ويتمنىأن تنتهى الزيارة بسلام ، وبعضهم يصبر نفسه بأن هذه الزيارة الأولى تمرين محمود وان كان ثقيـلا عليهم فى المسـتقبل .

ودهشت فتحية حين وجدت بين الجميع عبد الرحيم ابن خالة ابن عمها ، انها لم تره منذ زمن طـويل ، فكيف سمع وما الذى أتى به ؟! استأذنت فتحية بعد الزيارة من الجميع وقالت ان لديها مسألة تريد أن تتحدث فيها مع مدير المستشفى ، فهموا أن همها يفوق همهم وأن العبء كله واقع عليها وأن الناس أسرار . دخلت على المدير بعد أن مكثت وقتا طويلا فى حجرة الانتظار ، فركبتها النرفزة ولكنهـا تمالكت أعصـابها وقالت له بهـدوء يناسب المقام :

ـ هذا هو أول معـروف ألتمسه منك ، أريد أن تتكرم وتعطينى شهادة بأن أمام زوجى علاجا لايقل عن ستة أشهر .

أجابها وهو يقلب بعض الأوراق أن العادة لم تجر بذلك ، وأنه من المتعذر الحكم على مدة العلاج .

أسرعت تقول :

ـ وما الضرر ؟ ومـاذا تخسر ؟ شـهادة لا طلعت ولا نزلت ، أنت لست مرتبطا بها ، اذا شفى فؤاد قبل الموعد فلن نجبرك أن تبقيه عندك ، انما هذه الشهادة تلزمنى أشد اللزوم وتتوقف عليها أشياء كثيرة .

رفع اليها بصره وتأملها ، تحولت نظراتها الثابتة الى غيام ، فأحنى رأسه وقال لها :

ـ حاضر ياستى ، لا أحب اغضابك ٠

لما خرجت من عنده لامت نفسها علىحدتها واعتزمت على أن لاتكرر هذه الهفوة ٠ هذه الحـدة التى جعلتها تنسى أن تطلب الشهادة التى تنصح بنقل فؤاد لمستشفى خاص ، ستطلبها منه فى الزيارة القادمة ٠

ودهشت فتحية مرة أخرى بسبب عبد الرحيم حين وجدته ينتظرها على باب المستشفى ، وسار بجانبها ، وكان هو البادىء بالكلام :

ـ لم أرك منذ دهور يافتحية ٠

ـ أنت لاتسأل عنا ٠

ـ بل أنت التى تكبرت علينا لأننا فقراء ٠

ـ هذه أوهام من عقلك الوسخ ، ربنا يحمينا من شر أقوال الناس أمثالك ٠

ـ على العموم أنت فى حاجة لمن يساعدك الآن ، أنا تحت أمرك وفى أى ساعة تطلبينى تجدينى ٠

قالت فى سرها : ماأكثر الوعود هذه الأيام وما أقل الوفاء !

ــ أما تزال فى وزارة الأوقاف ؟

ــ كما أنا ·

دب فى قلبها احتقار له ، انه لم يتغير ، هو دائما له عقلية الخادم ونفسيته ، يحب التمسك بأطراف الموائد ·وان أكل لقمته حامدا شاكرا ، ذهنه بلاأصابع، ويده غبية ، ولسانه ملجم ، لو أوقفته وراء الستار لما بصت عينه من خرم ، وأحدث آرائه هى آخر ماسمعه ، لا عجب أن عوضه المنان بصحة جسمانية مثل الحديد ، كانت تلعب معه وهما طفلان ، فكانت هى التى تركبه وتؤذيه وتضربه فلم يكن يغضب بل ينظر اليها باعجاب، رضاؤه عن نفسه وقف على رضائها هى عليه ، ثم لما كبرا فرقت الحياة بينهما وان كان يزورها أحيانا مع الأعياد ، هذا الموظف الصغير فى وزارة الأوقاف يعد نفسه من دلاديل الست ومحاسيبها · قالت فتحية فى سرها : ولم لا ؟ ان الله أرسله لى عند الحاجة ، سيكفينى مؤونة مشاوير كثيرة ثقيلة · وابتسمت فى وجهه · وخيل لهما لحظة أن الزمن تراجع للوراء الى حوش كبير

فى منزل قديم تلاحــق فيه صبية بضــفيرتين صــبيا بجلابية ٠

★★★

لم تقترب مدة العقد المؤقت من منتصفها حتى كانت فتحية قد أصبحت مسمار المكتب ٠ اعتادت أول الأمر أن تصل كل صباح فى موعدها ، منهكة لم تكمل زينتها ، كان الله فى عون ست مكافحة مثلها ، اذا كان اليوم هو صبيحة يوم الزيارة الأسبوعية بدأت أولا باذاعة نشرة أخبار صحة فؤاد ، هذه المرة حالته لم تتغير ، هذه المرة هو أحسن ، هذه المرة حالته تأخرت قليلا ، لامعنى لهذا التناقض الا أن الحالة مهببة ، ولعل هذه النشرة هى التى أغنت الزمــلاء ــ زمــلاءها هى الآن ! ــ عن الذهاب لزيارته ٠ فتحية تقــول لهم بالفم المليــان انهم قاموا بواجبهم وزيادة ، الدورة والمتمة على حضرات الاخوة والأقارب ، هل يتصور الزملاء أنها تذهب فلا تجد أحدا منهم ، ولا صريخ ابن يومين ، أين الأخ الشقيق ؟ أين الاخوة لأب ، أين الأخت لأم ؟ كل منهم فص ملح ذاب ، أما الأم فتأتى مرة وتمرض هى مــرة ، وحين تقابلها لاتكلمها ٠ لماذا ؟ هل قتلت لها قتيلا ؟ ثم لاتكاد فتحية تفرغ من هذا الكلام وتبدأ العمل حتى يدب فيها وفى

حجرتها كلها وقدة شديدة ، أوامر وتليفونات ودخول وخـروج • فهمت الشـغل بسرعة وأتقنته ، أصبحت معروفة فى الشركة كلها وفى عمـارة المكتب ، يعرفها البواب وعامل المصعد ، حتى الخواجة الساكن فى الدور الأعلى سأل عنها حين رآها فى المصعد ذات يوم تحمل فى يد ملفـا وفى يـد رغيف توست وأقـة موز ، قال له البواب : «واحدة ست مسكينة تجرى على عيالها ، برافو عليها !» • لم تعد فتحية تبالى بعبارة «ست مسكينة» التى لاحقتها منذ أن دخلت الشركة ، هى لاتضيق ولا تسر بها ، بل هى تضعها فى جيبها مفتاحا صنعه لها الآخرون قبل أن تصنعه هى لنفسها تستعين به على فتح الأبواب التى لاتستجيب للطرق الأول • هذه العبارة هى التى أعانتها على تحسين علاقتها مع أغلب موردى الشركة ، لم يتقدم أحد منهم ضدها بشكوى من مجهول ، لم يكن أقل نفع العمل لها أنها فقدت بدانتها ، وأصبحت تلبس المشد بسـهولة ، كانت فى أول الأمـر ست بيت ثم موظفة ، العمل فى المكتب متأثر بحالتها فى البيت ، فأصبحت موظفة ثم ست بيت ، حالتها فى البيت متأثرة بظروف العمل فى المكتب ، وقليلا قليلا بدأت عنايتها بزينتها تزداد ، وحلت لها الدنيا وشعرت بشخصيتها

فى العمل تثبت وتسـيطر ، سعادة كبيرة تخفيهـا فى قرارة نفسها ، بل بدأت من فرط الثقة تتدلع وتأتى للمكتب متأخرة ، ولكن الجميع وهم يلحظون عنايتها بأناقتها يشهدون أنها تلتزم الجد ، وأن سمعتها نقية • لقد عرفت كيف تحتفظ بكرامتهاوتعامل الزملاء معاملة الند للند لا شأن فيها للجنس ، انها ليست مغفلة ، قد انتبهت الى تيارات خفية تحت السطح ومبادىء مغازلات متسترة ، ولكنها عرفت كيف تقضى على هـذا العبث كله ، انها وقد رتبت فى الظل الاحتياطى المجهول الذى لايخون ولايفضفض ليست فى عجلة من أمرها ، هى عاقلة متحكمة فى أعصـابها لن تخطـو الخطوة الا اذا وجدت نفسها فى آخر الطـريق المسـدود ، وستكون خطواتها بعدها قليلة مرسومة وعند أشد الحاجة ، فهى لاتريد اذا سنحت لها الفرصة فى العلالى أن تبدو فى صورة امرأة متهالكة تنهدم عند اللمسة الأولى ، لأنها تحب اذا آن الأوان أن تكون هى التى تجود وهى التى تقود •

★★★

ظنت فتحية بعد أن سالمتها الأيام أن نشرة الأخبار لم تتغير كثيرا وأن العقد سيتجدد بسهولة ، فاذا هى

تفاجأ فى آخر زيارة قبل نهاية المدة بطلب من مدير المستشفى ، ولما دخلت عليه أخبرها كأنه يزف اليها بشرى أن فؤاد دخل فى فترة هدوء من المتوقع أن تكون طويلة ، واحتمالات النكسة بعيدة وأنه بشىء من المسايسة فى البيت لاسبوع أو أسبوعين يستطيع أن يعود الى عمله ٠

اغبر وجهها ولكنها تمالكت نفسها وابتسمت وكادت تخطف يده لتقبلها ثم وقفت بين يديه مترددة معتذرة ٠ ان كان في هذه الدنيا كلها من يفهمها فلن يكون الا هو٠ وقالت بسرعة كأنها أعدت الجواب منذ زمن طويل :

ـ انت سعادتك عارف انى موظفة ، وقد قررت الشركة آن ترسلنى فى جولة فى أوروبا للاشراف على جميع موردى طائراتها فى المطارات الأجنبية ، وسأسافر فى الأسبوع القادم ، هذه هى فرصة العمر ، أعددت جواز السفر وكل التأشيرات ان أردت أحضرها لك ، فاعمل لى معروفا وأجل اخراج فؤاد شهرا واحدا ، ثم لاتنسى أننى أعيش وحدى فى البيت ، وأحب أن أكون مطمئنة كل الاطمئنان أن لايحدث لى أى خطر اذا خرج قبل الأوان وأصابته فى منتصف ليل نوبة من الهياج ٠

فأنا أعمل ، وأنا وحدانية ، وامرأة جار عليها الزمان ٠

نظر اليها مليا ، وذكر مقابلتها الأولى فاستدار وقال لها وهو يخرج من باب جانبى :

ـ حاضر ياستى فهمت ٠

★★★

ليست هذه أول كذبة فى الحياة تصبح حقيقة فى اليوم الذى تم فيه تجديد العقد قدمت فتحية الاقتراح وجرت وراءه ، وفى أقل من أسبوع صدرت الموافقة على جولتها فى أوروبا ، ونشرت الشركة فى الصحف بين اعلاناتها صورة لاحدى طائراتها ، وعلى السلم فتحية فى تايير أسود كلاسيكى تلوح بيدها وتبتسم لمودعين لايظهرون فى الصورة ٠ وكانت الرحلة الى أوروبا أول خطوة للعلالى ، وأيضا أول ثمرة لهذا العلالى ٠ اذ كان مدير الشركة مسافرا بالطائرة ذاتها ٠

الفراش الشاغر

الوالج

الوالج فى شارع الريحان من ناحية ميدان الامامين تمر يده الشمال بعد خطوات بدكان صغيرة قد لاتلحظه عيناه وهو ماض فى سبيله أمام صف من دكاكين فقيرة متلاصقة متشابهة تحاذى الرصيف المقشور الضيق فى استقامته ودورانه • فهذا الدكان مضيع هو واخوته فى عتمة غلالة من هواء رث ، نسجها عنكبوت مات فى وقت غابر فعشش فيها من بعده الأمن والرزق والنعاس ، والزمن المشلول • والزنبرك الذى يحرك الدمى من ورائها قد هرم • فالرؤوس محنية على الصدور ، والأجفان كالسقاطة تشد بحبل ، ثم تهوى والأيدى مترنحة ، وهى تنتقل بين تسلم الملاليم ومناولة الزبائن ، ونش الذباب عن الشرب من نز الشفاه ورشح الجفون ، ومن رقراق لزج جميل لونه ولمعانه يسيل من صماخ الأذن •

أما اذا رفع المار بهذا الدكان بصره قليلا فستستوقفه لافتة ينقبض لها قلبه ويشيح عنها بوجهه ويسرع ـ وقد يتعثر ـ فى مشيته وهو حائر يسأل : ما الذى حشر هذه المهنة اللعينة بين دكاكين تجارة مباركة تجد مديحها فى الكتاب والحديث ولاتأنف من مصافحة أصحابها ومؤاكلتهم ؟ انها فى هذه الجيرة غلط : دمل فى خد أسيل ، مومس بين حرائر ، مجذوم بين حريم أمير شرقى يسكر أيضا على اللبن الحليب من يد قواد شريف ٠

من حسن الحظ أن انقباض قلبه سيخفف منه اعجابه بنفسه حين يحسب أنه أول من يكتشف بذكائه أن اللافتة تدل على أنها كانت معلقة من قبل فوق دكان أفسح عرضا ، فهو قد لحظ أنها بسطت طرفا من جناحيها على الدكان المجاور ناحية اليمين والدكان المجاور ناحية اليسار ، وهذا تواضع منها لأن ظلها يعم الأرض كلها ، واللافتة مائلة قليلا الى الأمام ، مائلة كثيرا الى جنب ٠ انها توشك أن تهوى فى أية لحظة ، ومع ذلك فهى خالدة ٠

الجار الأيمن بقال بلدى ، فى مدخل دكانه عارضة من خشب أغبر محبب عليها آنجر باذنجان مخلل ٠ كل

باذنجانة أجهضت بذر أمعائها ، متفسخة بالية اهترأ لحمها • من أجل ذلك تتحلب لها أفواه الزبائن ، ان لهم صلة قرابة بالرخم والضبع •

الجار الأيسر صانع حقائب يعمل فى نفاية الجزار، ظهر هذه الحقيبة كان ظهر بقرة ، وبطن هذه الأخرى كان بطن ماعز • حقائب للفـراق والهجرة ستتوسد أرصفة المحطات ، وأرفف القطارات ، وتجوب الأرض كالأرواح الهائمة •

ومرت بالطريق عربة كارو ، تشـع بصيصا من رائحة جمار ذكر النخيل • هى كقفص دجاج بلا سقف، أو سياج تكتظ داخله نسوة فى ملابس سود ، تحت كل واحدة منهن بيضة ، الويل لهن ان لم تفقس ، فهن فى سباق مع حدأة لصة لاينقطع نهمها ولا دأبها على الترصد لفراريجهن واختطافها ، أما الحمـار فمحروم وصاحبه مقطوع الأنفـاس ومع ذلك لاتشـبع فراغة عينه •

وتلفت عابر السبيل للافتة مـرة أخـرى قبل أن تغيب عن نظره مكتوب عليها بالخط الثلث وبأحـرف بيض عريضة مشققة كظهر السلحفاة : «حانوتى عموم قسم الامامين» •

وترك صبى المعلم مدخل الدكان واتجه الى قاعة ، انه كهف مظلم تختنق فيه نظرات المارة ، ثم مالبث أن عاد حاملا على كتفه نعشا جديدا مشقوقا من صندوق وغطاء ، وعلقه بمسمار علي درفة الدكان ، ثم جلس وشرع يسن أظافره على جلبابه المقلم .

★★★

تسكن قبالة الدكان منذ عهد بعيد أسرة قليلة العدد : أب وأم وولد واحد ، أول العنقود كان آخره ، لايعرف الجيران عنها شيئا كثيرا ، وأدركوا أنها أسرة تريد أن تعيش وراء ستر ، وفى اعتقادهم أن لا طلب للستر الا لاخفاء كمال فى السعادة أو فى الشقاء ، كلاهما وصمة دامغة يضاجعها الحياء . وقال البعض ان وراء الستر سعادة ، يحس بها ثم ترى رأى العين حين تفيض فى المواسم والأعياد ، فنور الفرح الذى يتدفق حينئذ من نوافذهم ليس كمثله نور فى الحى كله ، له جلجلة الضحك . وقال البعض ان وراء الستر شقاء ، ففى كل شهر مرة أو مرتين تقف أمام الباب سيارة مرهقة الروح والجسد . كحبلى اختنق داخلها جنينها ، غيرها يلد الحياة أما هى فتلد الموت ، أو ينزل من السيارة حارس ضخم يسيطر على رجل طويل نحيل

ممتقع الوجه زائغ البصر هائش الشعر دائم التربص، يمكر للحظة يسترد فيها حريته لينطلق ، يبحث عن عدو لئيم حطم روحه ووعيه ومنطقه وأبقى له لغة كمصاصة القصب هى التى يلوكها فى فمه لتفصح عنه ، والمصيبة أنه لايعرف من هو هذا العدو ، يتشبث بباب السيارة وباب البيت والحارس يدفعه ويعدل بالكف وجهه الى الأمام لئلا تنخلع رقبته ، ولكى يصون المارة من نظرات كطلقات الرصاص وسباب تخجل منه أحط المواخير .

وعند الضجة تنطبق نوافذ البيت كلها فى لحظة واحدة كأنما لم تجذبها يد ، بل تحركت من تلقاء ذاتها ، وبعد ساعة أو ساعتين ينزل الحارس يمضغ ويمسح شاربه وتلوذ بيده الأخرى يد رخصة رفيقة لطفل طويل نحيل وديع ، اذا احتل مقعده فى السيارة أخذ يتوجع بخفوت ، ويئن أنينا متقطعا مكتوما كأنه عائد من سفر طويل على ظهر دابة عرجاء فوجد فراشه المعهود ينتظره .

ويقول أنصار مذهب الشقاء فى زهو مكتشف السر وكاسب الرهان انه نجم الأسرة ورجلها الفالح وانه ذو ثراء وفير ، هو الذى يمنع أهل البيت من

الدعاء عليه بالموت ، ففى شريعتنا أن القاتل لايرث القتيل ولو قتله رحمة به • ويحدث مرارا بعد حركة السيارة أن يخرج صبى القهوة وفى يده جردل ممتلىء لتم عينه بماء الشيشة والجوزة ويقف على الرصيف وينفضه بجذبة عنيفة فيسقط رشاشه كأنه رعشة لذيذة فى جلد الأرض ، وتفوح رائحة حثالة النيكوتين فتتخدر عليها وترتاح أعصاب المارة من بشر وخيل بغال وحمير •

★★★

المسألة أبسط من ذلك ، فليس الستار مسدولا لاخفاء سعادة أو شقاء بل لسبب آخر لم تدركه براعة ظنون أصحاب المذاهب ، لأنه الأقرب للعقل والالصق بطبيعة الانسان ، والسحر فى الوهم لا فى الحقيقة ، هذا يبرق لتعشى تلك ، ان الأسرة تقترف عملا لا حاجة لغير مثله الى ستار اذا أريد لطقوسه ألا تفسد فيبطل مفعوله ، هو نفض اليدين من دنيا الناس ، هى عندهم عش زنابير ، لا أمن الا فى تجاهلها ، وقنبلة زمنية لابأس أن تطوف بها ولكن حذار من لمسها ، وزق مختوم له رائحة لذيذة مسكرة ، فاذا فضضته استحال هو وعقلك الى أبخرة هوج متطايرة ، العيش عندهم ليس

خطا عموديا يرتكز جديده على قديمه . ويتسع معه الأفق كلما علا ، ولا قوس دوران فلك : شروق ثم سمت فانحدار فمغيب ، بل هو خط أفقي أبيض مستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها من شدة تلاحمها ، حتى طعامهم تمضغه لهم قبلهم المفارم ويد الهاون ، يأكلون اللحم والخضروات كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدون لذة مذاقها في ضياع طعم أجزائها، فالشيوع عندهم نجاة من مقابلة وجها لوجه لنعمة مخلوعة العذار تقتضى منهم أن يخروا لها سجدا على الأرض ، ولايرفعوا عنها جباههم أبدا . انه وضع متعب والتعب أوسع أبواب الكفر ، فهم فى تنكرهم للنعمة أشد من غيرهم معرفة بقدرها وامتنانا لها ، كفوا عن الاعطاء خشية نوال عوض يغرقهم بجدبه أو يمتصهم بفيضانه ، فأمنوا التفجع وضرب الكف بالكف لدمامة العقوق من الآخرين ، والتأوه لخسة أرواحهم هم أنفسهم وهى تتهيب وهم خور يرقبها ويسمرها كما يفعل الثعبان بالعصفور ، فانك قادر على أن تضمن برقبتك بقاءك دواما شحيحا جبانا ولكن لاتستطيع أن تضمن ولو بدانق أن تظل دائما فيجميع الأحوال كريما شجاعا ، وان خلوا الى نفوسهم سقطت

عن أيامهم أسماؤها وأصبح الانتباه لفروقها مرتبطا بدوران ظل أو ترديد صيحات الطيور المهاجرة ، فمن نفض يديه من دنيـا النـاس تزداد صلته بالطبيعة ، واختلطت الأعمار باختلاط الأيام ، فالزوج ينـادى امرأته بيا أمي وهى تناديه بيا أبتى ويناديان ابنهما الوحيد بيا أخانا ، والابن ينادى أمـه بياعروستى . أما مناداته لأبيه فقد نسى لفظها لأنه أقلع عن مناداته منذ أن بلغ الخامسة من عمره وأصبح لايتحدث اليه أو عنه فى حضرته، فاذا ولىلايشير اليه الا بضمير الغائب، بكلمة «هـو» وحـدها ، وكان يحـدث مـرارا وهما يتدابران وينصرف أحـدهما عن الآخـر أن يلتفت الأب وراءه فيجد ابنه ملتفتا اليه ، فى اللحظة ذاتها ، يحس الابن أنه يتلقى بنظرة متجسسة متوجسة ، ويحس الأب أنه يتلقى نظـرة تبحث عن مشرط لامع مخبأ فى قبضة اليد ، وتنقلب النظـرات المتبادلة الى ابتسامات الخجـل والاعتـــذار ممن ينكشف لعبـه ، ثم تتحـول الابتسامات مرة أخرى الى نظرات تنطق بالفم والمحبة والاعـزاز . يحدث هذا كله فى ومضة البرق مما يدل على أن الأسرة متماسكة ولها علامة مميزة هى أن أيدى

أفرادها كلهم رخصة ناعمة مهذبة من أثر كفهم جميعا عن الاعطاء ٠

★ ★ ★

عيش بلا برنامج ، لذلك لم يبـد أبواه دهشة أو اعتراضا أو أسفا حين عدل الابن عن الدراسة فى كلية التجارة بعد أن أمضى بها سـنة أورثته ـ وكان خـالى البال بريئـا من الاحن ـ كرها ممضـا للمال والجمع والطرح ، أصبح اذا تأفف بصمق برقم ٠٠ ولا حين عدل عن دراسة الآداب بعد أن كرس لها سنة أخرى اذ وجد أن عيار عقله ولسانه قد انفلت وأخذ يشقشق بثرثرة فارغة ، ثم بقى فى الدار عاطلا سنة قلبت حياته رأسا على عقب ، ثم نفض يديه وترك سفينته تلقى مراسيها بكلية الحقوق وتوالى فجاحه وان جاء ترتيبه فى الذيل حتى لم يبق على تخرجه الا سنة واحدة ، استقر بهـا وهدأت نفسه فقد أراحه وأعجبه أن القانون نحا برقبته من شريعة الكون وربكتها وتناقضها وتسميتها للظلم أنه فى بعض الأحيان عدل ، ليس عنـدها حساب ختامى ، وحتى لو كان فبعد خراب العالم كله ، واصطنع القانون لنفسه منطقا مستقلا جميلا على الورق ، بارع التقسيم والتسلسل عاجل النفاذ ، كأنه هدم بناء الحياة واتخذ من

أنقاضها قوالب مرقومة أقام عليها صرحه : القــاضى لايحكم بعلمه حاشا وكلا ، بل من الورق ، فالورق أبين من الحقيقة ، الصدق عنده كالكذب مرفوض الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ، الرذيلة عنده محددة لها مقام ، والفضيلة مبهمة ليس لها حساب ، يقضى بعقاب الزوج الخائن ولايقضى بمكافأة الزوج الذى يظل مخلصا بعد شهر العسل ·

ومع ذلك ففضيلة القــانون أنه رحم الانســانية بتحويل عــالم الروح الى جــدل عقلى منطقى تزول فيه الفروق بين العالم والجاهل والمتطوع والمعــذور ، انه حذف القدر من قاموس الانسان ، ولما حذف كلمة القدر حذف كلمة الرحمة أيضا ، لابأس ، فهذا هو التسلسل المنطقى الذى أخــذ به القــانون نفســه ، وان منطقا مسلسلا أفضل ــ مهما كثرت مظالمه ــ من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم · وشيئا فشيئا أخــذ صاحبنا يفقد الاحساس بالفروق بين الفضيلة والرذيلة لاختلاف منطق شريعة الكون عن منطق القانون وأصبح كهذا الشحاذ الذى يتناول ولا يعطى ، يبتعد عن زحمة الحيــاة ليرقد على رصيف أمام مســجد ويعرى قلبه ثم يهبه لضــوء

الشمس وأسراب القمل فيجد في اختلاط الدبيبين لذة تئن لها النفس ألما وتهتز طربا في وقت واحد ·

أصبح الفتى قعيد الدار بين الآداب والحقوق فكان من الطبيعى أن لا شىء يشفيه من تعطله الا عمل واحد هو من بين الأعمال جميعها أبسطها وأسهلها وأنبلها وأصدقها وأقربها للعقل : أى أن يعمل زوجا ، هو بكر ومع ذلك أصر على ألا يتزوج الا من ثيب · وتولى هو بنفسه وبغير مداخلة من أبويه اختيار المصنع الذى سيهبه العمل فيتلقفه منه · لم يراجع قائمة الأقارب والجيران والمعارف بل مد يده وهو جالس في بيته ووضعها كقسيس يمسح امبراطورا على رأس فتاةفقيرة وقال كلمة واحدة هى «هذه» شأن الأطفال فى متاجر اللعب ، حينئذ غمرت روحه سعادة لا حد لها اذ أحس أنه ارتد الى الطبيعة الأم وداس بقدميه فى طريقه اليها على كل التقاليد التى اخترعها الانسان للظفر بزوجة : مطاردة واقتناص الوحش للوحش ثم خطف ثم شراء ثم اثبات بطولة بعد نزال ثم غزل وسهر وتنهدات ، وكان يضحك فى سره أحيانا لأنه يفطن بغير علم الى أن سر شقاء المرأة فى عصرنا هذا أنها ترث كل جداتها وتريد من زوجها أن يلجأ فى الظفر بها الى كل هذه الوسائل

مجتمعة ، وان زعمت أن الغـزل وحـده يكفى لأنهـا متحضرة وهذا كذب . فما له هو ووجع الدماغ ؟

تأتى هذه الفتاة الفقيرة لزيارتهم فى صحبة أمها وأبيها مستـأجر أطيان نجم العـائلة كلما حل مـوعد القسط الشتوى أو الصـيفى . لاتزال تلبس الملس المصبوغ المخرخش ، وخفا لا حذاء . لاتكشف عن وجهها الا بمقدار ، منهدة فى قبضة الحياء ، اذا وجه لها أحد كلاما غاصت فى الارض ، ولكنه جمع كعبها الوردى الى الفتات الذى يراه من وجهها وحكم بأنها هى التى تصلح له : فتاة خام ساذجة ، عيون سيالة لاتقوى على توجيه النظر وجبهة لاتبرق بفكرة ، وجسـد فى حالة شيوع تاهت فيه مفاتن الأعضاء ، وشعر ملبد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل ضفائر مبتلة على جبينها وخديها ، انه سيعصره لها بأصابعه وشفتيه ويجد لسانه فى طعم رائحة الصابون ألذ خمر !

هو يعلم أنها تزوجت من أحـد أقربائها فى البلد وكان لغريم له ثأر عنده فلم يشـأ له غله وانتقامه أن يتركه يتمتع بعروسه ، وترصد له وهو عائد من الحقل وأفرغ فيه رصاص بندقية مخروطة شغل يد . وحمل لها جثة ممزقة وأخـذت تمسح جـراحه بمنديل تلوث

بالدم لثاني مرة في أسبوع واحد . فهي اذن في نظر الفتى عز الطلب ، سهلة ، تولى غيره فك عقدتها ودكها، كالطاجن يشتريه مستويا ناعما جاهزا ويترك لغيره تلويث أصابعه وخدشها وهو يطليه له بالزيت ، بل ان هذه الفتاة تفضل هذا الطاجن لأنها لاتزال ملطخة بالدم وان يك جديده من نزيف زوجها القتيل .

وراق الفتى ، لكي تتم له متعة نزوته ، أن يؤثث حجرة العرس التي أفردها لنفسه في دارهم على ذوق فلاحة من طبقة زوجته : حصيرة ترص عند حافتها الشباشب والقباقيب وسرير من الحديد له ملة من خشب وناموسية من حرير وردى وصندوق للملابس مزين بالأحمر والأخضر وطشت ودست للغسل . فلما أكمل الجهاز اذا بها تقرب فمها الى أذن أمها وتهمس لها بشيء ثم أدارت وجهها للجدار من شدة الخجل وأبقت يدها في يد أمها تشدها لتمنعها من الكلام في حضرتها . فلما انفرد الفتى بحماته أخبرته أن ابنتها همست لها : مادمت سأتزوج في العاصمة ومن رجل قد الدنيا فأحب على الأقل أن تكون ملة السرير من السلك الهزاز لا من الخشب .

على هذه الملة السلك لقى الفتى صدمة حياته ،

زلزلت كيانه فانهدمت أوهامه وبقى هو عاريا وسط أنقاضها يلعق حيرته ، ففى الليلة الأولى ذاتها انقلبت هذه الفتاة الخام الساذجة الى وحش ضار مفترس ، العيون المسبلة أبرقت كعيون الصقر المتحفز ، تنبعث منها فى جوف الليل نظرة متقدة كأنها وميض سيف أو ذوائب لهيب ، لو مرت بعود ثقاب لأشعلته ، نار لاتطفئها مياه الأنهار المقدسة كلها ، نظرة تلحس جسده كالمبرد ، والجبين الذى لا يلمع بفكرة أصبح مسطورا عليه ــ بدل القدر ــ أمر أداء صادر من محكمة مستعجلة لايقبل التأجيل أو الاستئناف ، الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت متورمة عن رعشة تلهث ، الفم يتلمظ ولا يستقر على هيئة واحدة : هو تارة فوهة بركان مستديرة ، وتارة بطن دوامة مكورة كالقمع ، وتارة مستطيل كشق الخنجر ، تقلصات متتابعة كأنما فى حلقها خطاف تجذبه يد بلا رحمة ، وانكشفت أسنان تلألأ جوعها فتطاير من حولها الظلام مذعورا ، والأعضاء التى كانت تزعم أنها فقدت فتنتها في شيوع الجسد استرد كل منها حقه واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله اشرأب ابهام القدم وطلب العلا وزادت الضراوة حدة لشدة التناقض

فقد بقى الكف منبسطا مستسلما واهيا ، والذراع رطبا والرضاب شهدا زلالا ، والنفس نفس طفل غرير ٠

ماذا يفعل ؟ انه سليل أسرة كفت عن الاعطاء ، يريد كأسا ينهلها جرعة واحدة دون أن تلتصق بشفته كدودة العلق ، طلب المتعة لنفسه فدهمته قبل المتعة مسؤولية ٠٠ انه لايقبل الا مسؤولية يتطوع بها بارادته وحريته ويكره أقل مسؤولية تفرض عليه ، انها جزية استعباد وغزو يهتك الستر الذى تتزين من ورائه كرامته ، هى كاملة خالصة له يرضى بها كما هى مابقيت فى خلوتها ، لا حق لأحد غيره أن يتفحصها ، يكبر عليه أن يوضع فى الميزان حتى ولو كانت فى الكفة الأخرى خردلة ، فلتقطع كل يد تزعم أن لها الحق ــ وبغير طلب منه ــ أن تعريه وتمتحنه وتزنه ٠

ومع ايمانه هذا لم يستطع فى ذهوله أن يصل الى قرار ، وكانت هذه الفتاة الخام الساذجة أسبق منه اليه، ضبرت ليلة ثانية ثم فى الثالثة رفسته بقدمها وقالت له :

ــ نساء الصعيد خلقن لرجال الصعيد ، اننى أبول على نقودك وأناقتك وكلامك الحلو ٠

وأضافت تتكلم بلسان القدر :

— ابحث لك عن مومياء ملطخة بالأبيض والأسود والأحمر ، فبلدكم مملوء بآلاف منها .

وقامت تجمع خلقاتها ولأول مرة انتبه الفتى رغم ذهوله الى جمال عرنين أشم ، ورقبة متطاولة ، وساقين مشدودتين تحسدها عليهما أنبل فرس عربية أصيلة .

وفي الصباح كانت هي التي تجر أمها من يدها ، ومشت متسحبة كأنما تهرب من أعـداء غلبهم الكرى ونومهم خفيف ، ومع ذلك كان الملس الأسود المصبوغ المخرخش مائلا برأسه الى الأمام قليلا كأنمـا تستعد للجرى اذا جاوزت الباب ، لم يطل زواجها الثاني هو أيضا الا أقل من أسبوع ، ولمـا رأت أمها في عينيها وميضا حسبته بقايا دموع قالت لها :

— لاتحزني عليه ، يعوضك الله خيرا منه ، هـذه قسمتك .

أجابتها في سرها :

— ما أطيبك وأغفلك يامه . لو بكيت فلن يكون بكائي الا حزنا مجددا على زوجي الأول .

لم يجد الفتى بعدها لمتعته اشباعا ولا لجرحه لسانا يلعقه الا فى أحضان تاجرات الهوى ، ليس لواحدة منهن حق عليه ، فلا مسؤولية عليه قبلها ، انه يريد أن يشترى بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء ، هذه طريقة بدائية طواها الزمن والتمدن • كان فى أول الأمر لايفرق بين واحدة وأخرى • ثم بدأ يتأنق فيبحث وينقب عن البائعة التى تجذب المشترين لبضاعتها جذب قطعة سكر لأسراب الذباب ، تروقه كلما زاد عددهم وضاع هو فى الزحام بينهم ، كأن وجهه أصبح قناعا ، ومع ذلك لايجد بعد جنته المنشودة ، فلايزال يتوهم حتى فى أكثرهن رواجا وانشغالا اشاحة وجه أولوية خشم أو دفعة يد ، تفسد عليه طمأنينته . وأصبح غاية مايتمنى أن يجد من جمد وجهها فلا يتحرك ولو اصطبغ بلون الشمع ، وانعقد خشمها فى قالب ثابت ولو تصلبت الشفتان كالخشب ، ومن شلت يدها ولو أصبحت باردة كالثلج •• فأين يجدها ؟

★★★

لا أحد يدرى ماذا كان يكون مصيره لو لم يدهمه مرض غريب أقعده فى الفراش زمنا طويلا ، قال الاطباء انه ميكروب هين لايخلو منه سليم ، تلتهمه

الكريات الحمراء بسهولة وبغير مساعدة ، أما هو فجسده عاجز عن المقاومة لا لعلة فيه بل لفقدان ارادته ورغبته فى المقاومة ، فكل دواء جهد ضائع . ان جسمه هو تجسيد التأرجح على الحبل بين أريج الحياة ونتن الفساد، فكأنه جثة لاتحركها روح ، بل زنبرك أو مخلوق يتنفس قد أكلت الغرغرينة من تحت الجلد كل لحمه وما أبقت الا لمعة عينيه ، ونصح الأطباء أباه أن يعرضه على طبيب نفسانى .

لدغته هذه الكلمة فما كاد الأطباء يغادرون البيت حتى قام من فراشه ودخل الحمام ليميط عنه الأذى ويودع ماضيه ويغتسل ويتطهر ويتشهد ، ثم خرج وقد نطق وجهه الندى بانصياع رضى وطيبة حلوة ، وتناسقت حركات أعضائه وشملها هدوء عجيب أصبح بعده متهما بالبلادة ، ولكنه وجده عز الأناقة ، فزاد اعتناؤه بأظافره وربطة عنقه وانسجام هندامه ، أصبح يتحرك بخشوع فيه دلال مخنث ، ويتكلم بنبرات خفيضة فيها غنة ، وبدت فى عينيه عذوبة كأنما كحلهما بعسل ، ولكن قامته الطويلة انحنت قليلا الى الأمام فما ضره ذلك بل أضفى عليه جوا من الوقار . وأبان رأسه وذكاءه أكبر من حقيقتهما ، وان اتهمه البعض بسبب هذا الانحناء

أن له نظرات ماكرة فاحصة من تحت لتحت وهـو علم الله من هذه التهمة براء •

وهكذا انتهت هذه الفترة من عمره بدخوله كلية الحقوق فانتبه له زملاؤه لاناقته ووقاره وتحلقوا حوله لايدرون أى شيء يجذبهم اليه ، أهى أظافره أم أصابعه الرخصة أم هذا العسل الذى يسيل من عينيه وهـذه الغنة فى حديثه ، ولكن أحدا منهم لم تتقدم صلته به الى درجة الصداقة التى يفصل رباطهـا قلبين عن وسط الزحام ، ولكنه لم يشعر بالوحدة بل شـعر بالراحة ، وأضاف على تعسيلة نظـرته ابتسـامة حلوة ، أصبح زملاؤه يضربون به المثـل فى الطيبة ونبل الأخـلاق ، ويقولون هكذا يكون ابن الناس الأكابر •

★★★

لم يكن قد بقى على امتحان الليسانس الا أقل من سنة ، وطلع على الفتى يوم من أيام الخريف استكان فيه النيل بعد هيجانه ، وانقلبذوب عتابه المنحدر من الجبال البعيدة الى سمرة وطينة داكنة متموجة كجلد السمك ، فرغ من لقاح الأرض ودخل جحره لينعس فيه طـول الشتاء • ولمـا فقـد فحـولته أصبح لاشيء مثله يوحى بالقشعريرة وظلمة الأعماق والثقل العظيم ، وتزينت

الحقول بعد جفافها وعريها وشقوقها بوشاح من النوار تجود برحيقه على النحل والحيوان ، ومن خلال النافذة رأى الفتى وهو راقد فى فراشه سماء لازوردية تتنفس بنسيم رطب يختنق فيــه الخبث ورتــلا من سحب بكر مجلوة ممشطة تمازح أهل الأرض بتقليد كاريكاتورى لبعض مشــاهدهم ، وكأن يدا خفية صبت على الكون فيضا من المرح والسعادة والصفاء ، ومر طائر أســود عريض الجناحين وأطلق صيحة وهو يغتسل فى الضوء ، هذه هى السقساقة التى تبشر صيحتها كما تقول أمــه بقدوم مسافر ، ودامت مدى عمر هــذه الصيحة لحظة انهدت فيها عن الانسان قيودهوأغلاله وعبوديته ومخاوفه وغيومه وأوهامه ودنسه وانقلب طــاهرا بريئا مالكا لحرية مطلقة لا حد لها ، ليس لها من كفء الا حــرية ملاك أو شيطان ، وهبطت هذه الحــرية الى قلب الفتى فزلزلته قليلا ، ونعى عليها عنفوانها واباءها أن تفصل على قد القزم أو من هو من الملاك والشيطان بين بين ، اذن هو فى غنى عنها ، وأدار وجهه للجدار فملأه حتى استوعبه ملل فظيع أحس معه فى حلقه مرارة العلقم ، أصبح هو الذى يجرى فى عروقه بدل الدم ، وينضح به

جسده بدل العرق ، وتفتل منه أهدابه ، ويصاغ الوسخ بين أصابع قدميه ٠

تأخر فى الخروج ذلك اليوم على خلاف عادته ، ولما جاوز الباب وقعت نظرته على الدكان الصغير المواجه لبيتهم ــ وكان مغلقا شهورا غير قليلة ــ فرآه مفتوحا وشاهد رجلا على سلم يعلق فوقه لافتة «حانوتى عموم قسم الامامين» فانقبض قلبه ، هل هو محض صدفة أن جمع الزمن فى صباح واحد بين قدوم الملل وقدوم خادم الموت ؟ هل هذا أو ذاك هو المسافر الذى بشرت السقساقة بقدومه ؟ أم أن الحوادث مرتبة من قبل بنية مبيتة ولغرض مرسوم ؟

رأى صبى المعلم ــ هكذا حكم ــ يتعجل الرجل الواقف على السلم حتى جعله يخطىء وسط الحبل وهو يربطه الى المسمار ٠ وماكاد الرجل ينزل عن السلم حتى آتى صبى المعلم بالنعش وعلقه على درفة الباب ، والتفت الى العين التى أحس أنها ترقبه وتلاقت النظرتان ، حينئذ أمكن لصورة صبى المعلم أن ترتسم فى ذهن الفتى ناطقة جلية مفصولة عن الكون ، كأنما سلطت عليه أنوار كاشفة من ثقب مرسوم على هيئته ، رأى شابا مدكوك الجسم ككيس قطن ، قصير القامة

والذراع ، ضخم اليد ضيق الجبهة والعينين • نظرته ثاقبة لها لمعان ، حبة ترتره يعكس بياضها الضوء فى أشعة حمراء ملتهبة فيها مكر وحنق وعكارة دم فاسد وجوع الوحش ، لو كان مصمما على قتل غريم فى مرمى بصره لكانت هذه هى نظـرته ، يعلم الفتى أنه رأى صورته من قبل •• ولكن أين ؟ لايدرى ، وأخيرا هدته ذاكرته : انه رأى صورته فى كتاب قرأه عن نظرية داروت : هذه النظرة لها أيضا شبه بنظرة نجم العائلة قبيــل أن كان يحــل موعــد شــم الكوكايين أو حقن الأفيون •

وقبل أن يشيح بوجهــه رأى الصــبى يبتسم له ويرفع يده الى رأسه بتحية وسلام ، فمضى وهو يعلم أنه لابد عائد اليه •

★★★

وتوثقت عرى الصــداقة بين الاثنين وأصبح من عادة الفتى أن يمضى أمسياته فى صحبة المعلم أمام الدكان • كان أول الأمــر ينزل اليه مــرتديا بذلته وحذاءه ، ثم تركهما ولم يجد بأسا من أن ينزل اليه مرتديا جلبابه وشبشبه وكان حديث صبى المعلم عن

الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطقوسه وفنونه وحيله . وقال للفتى ذات يوم :

ـ مادمت تسمعنى بشغف وتسألنى عن كل شيء بلهفة ، فلماذا لاتأتى معى بنفسك فى أول طلب ؟سأقول انك من صبيان المحل ، ولن يكشفك أحد .

قبل عرضه من شدة ملله وذهب . لم يكن قد رأى قط من قبل جثة ميت ، ودخلا حارة ضيقة موحلة واقتربا من بيت يخيم عليه السكون فلما لمحهما سكانه اشتعل بالصراخ والعويل واللطم ودبدبة أقدام على السقف كما تفعل المريضة فى الزار اذا سمعت دقتها ، انخلع قلبه أول الأمر وكاد يضع كفيه على أذنيه ثم وجد نفسه يشق جموعا من صبية يحتفلون بالمأتم فى فرح ، فهذا التناقض بين الأصوات ووجوههم هدأ من روعه . وصعدا سلما ضيقا أخذ صبى المعلم يقيسه بنظرته ليعرف هل يسع النعش أو يضيق به ، ودخلا الشقة فاشتعل الصراخ والنحيب والدبدبة مرة أخرى ، ومع ذلك لقطت أذنه وسط الضجة وش وابور الغاز ، فعلم أنهم لم ينسوا غلى ماء الغسل ، أحاطت به نسوة متشحات بالسواد دامعات العين ، ومع ذلك خيل اليه أنهن يستقبلنه استقبالهن

لأحد رجال الاسعاف ، بل أخذت عجوز تربت على ظهره وتقول :

– يالله يالله .. شوف شغلك ياابني ، ربنا يفتح عليك .

حينئذ أدرك سر اعتزاز أرباب هذه المهنة بعملهم ورضائهم عن أنفسهم ، وجره صبى المعلم من يده الى حجرة ترقد فيها جثة الميت على حشية فوق الأرض وطلب منه مساعدته فى حملها الى الحمام حيث وضعت طاولة الغسل وصفيحة الماء فوق الوابور وأعد الكوز والطاسة والليفة والصابونة ، ولكن نفرا من أهل البيت أبوا أن تمس جثة عزيزهم يد غريبة الا حين لا مفر . فحملوها هم أنفسهم الى الطاولة ودفع صبى الحانوتى بهم خارج الحمام ورضى أن يبقى منهم شيخ يتمتم بآيات من سورة «يس» فعمل الحانوتى لايتم الا بحضور شاهد .

وفى حركة يد الفطائرى وهى تقذف الرقاقة فى الهواء جذب صبى الحانوتى الغطاء الأبيض عن الجثة وخيل للفتى أنه جناح طائر خرافى يتخبط من فوقه وحواليه يريد أن يلمسه ، ولما زال الستر وقف لأول مرة وجها لوجه أمام ميت .

شيء خارج عن تقسيم الكائنات الى ممالك ثلاث ، يجبرك أن تعيد تقسيمها من جديد الى مملكتين لا ثالث لهما : جثة ولا جثة ، شيء جامد وهـو من لحم طـرى ، مصنوع على هيئة انسان وليس بانسان ، ولا حيـوان ولا جماد ، ولكن الذى لمس قلبه أنه حين تأمله لم يدر هل يرى أمامه استسلاما بلغ حد التعذب به أم عـذابا بلغ مداه فذاب فى استسلام ؟

هل الجثة صرخة مشلولة أم صدى تسبيح ؟!

هل هى تهليل معناه لبيك ياحبيبى ؟ أم أنين أخرس معناه كفى ياأنت يارب ؟!

لا هذا ولا ذاك كله ، انمـا هى لاشيء فحسب ، وهذا الشيء الذى هو لاشيء له صورة بنى آدم ، ولكنه لايشيح بوجهه ولا يلوى خشمه ولا يدفع بيده .

وزالت الرهبة من قلب الفتى وأقبل يغسل الجثة برفق وحنان ضاق بهـا صبى الحـانوتى ذرعا فصرخ فيه :

ــ شهل ، شهل قبل أن يخفوا عنا اللحاف .

★★★

وأصبح بعد ذلك من عادته أن ينزل للدكان كل يوم

بالجلابية والشبشب ، يصر على أن يصحب صبى الحانوتى فى كل طلب ، وان يكون أسبق الاثنين جريا اليه · كل يوم يمضى بلا جثة هو عنده يوم ماسخ ، انه يعمل بلذة الهواة المفتونين بفنهم ، تريد يداه أن تقلب البضاعة كلها ، كل الجثث متشابهة عند النظرة الأولى ولكن عند المحب المتأمل تختلف ·

هل اليد مبسوطة أم مقبوضة ، الركبتان مكسورتان أم متخشبتان مرفوعتان الى الصدر كساقى الطفل الوليد، صبى الحانوتى يضغط عليهما بكل قوته لتدخل الجثة فى النعش ، يتمنى أحيانا أن يكون معه مطرقة أو منشار · عزم ثقيل كالرصاص ، وعملاق خفيف كالريشة ، جثة لم يبق منها الا جلد بال على عظم نخر ، وأخرى بالون ينتفخ ، ووجه متشنج فى رعب ووجه مستريح كأنه راقد فى سبات لذيذ ·

وأدرك صبى الحانوتى أن الفتى لايستطيع فراقه · ورأى ابتسامته تزداد رقة ووداعة ، ونظرته تعسيلا ، وجسده ارتخاء ، فأخذ الصبى اذا جلس اليه الفتى التصق به ، ووضع ذراعه فوق كتفه ، وهبط به الى خصره ، لايكلمه الا بوضع الفم على الأذن ليهمس له

له بكلام • ولما ظن أن الطبخة قد نضجت وسوس له ذات يوم :

ــ سلم نفسك الى ان كنت حائرا بها ، لاتتدلل ولاتخف فداخل الدكان ظلام فيه نعش كبير يسعنا نحن الاثنين •

فكان الفتى ينحى عنه الثعبان الأصلع والبخر ولكن لايغضب ولايتأفف لأن ذهنه سارح فى ملكوت القبور •

★★★

لجأ صبى الحانوتى الى حيلة تعلمها من أشباهه ، فما كاد الفتى يجلس اليه ذلك اليوم حتى بقى بعيدا عنه كأنما انقطع أمله أو ثاب لرشده وانصرفت عنايته عنه الى الاستعبار وذم الزمان والتحسر على الماضى ، وحين أحس أن الفتى قد تخدر قطع حديثه وقال كأنه تذكر فجأة خبرا جليلا •

ــ أتعلم ! أخبرتنا المعلمة زميلتنا أنها كسبت فى هذا الصباح المبارك أكبر مبلغ دخل يدها حتى اليوم وربما حتى آخر عمرها ، دعيت لغسل عروس من أسرة ثرية كان لم يبق على زفافها الا ليلة واحدة ، الثوب

الأبيض جاهز معلق وجاءتها البلانة ودخلت بها الحمام فما كادت تغسلها وتقوم منالحوض وتصب فوقها زجاجة عطر حتى وضعت يدها على قلبها وتأوهت ثم أسلمت الروح • شيعت جنازتها بالموسيقى ولم يكتفه أهلها بنشر الحناء على تراب القبر بل أصروا أن يغطى ثوب الزفاف جسدها وأن تهال عليه باقات من الياسمين الزفر •

عروس ، فى مقتبل العمر مغسولة مرتين راقدة فى ثوب الزفاف فوقها الزهور والليلة أول الشهر -

قال له الفتى بصوت محشرج :

ــ بيضاء أم سمراء ؟

فأجابه :

ــ سمراء ، لعلها من الصعيد •

ولما سمع هذه الكلمة انهد وأمسك بتلابيب صبى الحانوتى وهو يتوسل اليه بصوت مبحوح :

ــ دلنى على قبرها •

فهمس له :

بشرط أن تقبل ، بشرط أن ترضى •

وتسلل فى جوف الظلام شبحان : وحش مفترس يهضـــم الزلط وروح تحطمت وتعفنت وغابت عنهـا رحمة الله ٠

وعلى الصـــبح وردت لأهــل البيت رســـالة من المستشفى تقول أن نجم الأسرة قد هوى بالليل ، وأن فراشه أصبح شاغرا ينتظر نزيلا جديدا ٠

فهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٠/١٣٠٩٤

I.S.B.N 977 - 01 - 6882 - 3



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة».. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى عبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة».. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

١٥٠ قرش

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع

36